الجزء ٩ المجلد ٦



(دمشق) ايلول سنة ١٩٢٦م الموافق صفر وربيع الاول سنة ١٣٤٥ هـ ٦٩

عمل الذهب (١)

« بالطريقة الصناعية »

سادتي ، اخواني :

اسمحوا لي قبل ذلك بذكر مقدمة أبين بها الأمر الذي حملني على انتقاء هذا الموضوع دون سواه ، حملني عليه ماأسمعه من آونة الى أخرى من قدوم بعض اشخاص غرباء من جهات مختلفة يدّعون صنع الذهب ، فيتقربون من بعض سذج العقول حتى يتوصلوا بدهاء ومكر الى اختلاس أموالهم وثروتهم ويتركونهم حيارى ، ملء رؤوسهم الأمل الذي يدفعهم الى العمل الدائم لإتلاف ما يبقى بايديهم ، اوماسيحصلونه في مستقبلهم من مال في نفس السبيل

وقبل ابداء رأيي الخاص أطرح الاسئلة الآتي ذكرها على بساط البحث لتحليل المسألة تحليلاً دقيقاً ٠

صناعة الذهب صناعة قديمة ، قال بها الأولون واختلف عليها المتأخرون بين مصدق ومكذب ومثبت ومنكر ، ولا بد لكل شيء من أساس ٠ فهل لهذه الصناعة أساس بني عليه المتقدمون نظرياتهم ؟ وما هو هذا الأساس ؟ وهل توصلوا حقيقة لصنع الذهب ؟

من قرأ يا سادة شيئاً من كتب الأقدمين ، يعلم ذلك الأساس الواضح الذي

(١) محاضرة الاستاذ الكيماوي السيد عبد الوهاب القنواتي من أساتذة المعهد الطبي العربي في دمشق ألقاها في ردهة المجمع العلمي في تشرين الاول ١٩٢٣ ٠

بنيت عليه تلك النظريات ، وهو قولهم بوحدة المادة ، اي انهم كانوا يعتقدون بان جميع العناصر الموجودة هي من اصل واحد ، فكيف لا يمكن تحويل بعضها الى بعض وذلك بان بعمل من النحاس ذهب ومن الرصاص فضة الخ ؟ ! قام بهذه الفكرة العرب في أدوار حضارتهم ولم يبق منهم صغير ولا كبير الا واكثر التجارب وبذل الهمة في التوصل الى هذه الغاية · فدوّنوا الكتب والرسائل ، وكثر بينهم الجدال والقيل والقال · فكم من معترض أقنعوه ، وكم من مكذب حجوه ببراهينهم الناصعة · وكم من أحمق جاهل ضل في غياهب جهله وأضاع حياته بالبحث الفاسد وذلك لانه فهم من الرموز ظاهرها ، ولم يتوصل لغباوته الى حلها ، ولذلك مال الناس للإنكار حين عجزوا عن كشف ما وراء الستار ! وكم كُتِبَ على صفحات الكتب القديمة كالحواشي بعد ذكر تجربةٍ غامضةٍ مثلاً (اقرأ تفرح جرّب تحزن) ·

وحدة المادة هي الأساس الذي بنت عليه العرب نظرياتها واستنتجت منه إمكان تحول المادة من شكل الى شكل آخر ، ومن حالة الى أخرى بالعوامل المختلفة · ماهي تلك المادة الاولية التي هي اصل العناصر ؟ لقد بحث علماء الكيمياء في عامة العناصر المعروفة حتى اليوم ، فوجدوا بان ألطفها وأخفها وزناً الهيدروجين (مولد الماء) الذي هو أخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف تقريباً ، وثقل غرام واحد منه يملأ حجم احد عشر ليتراً وربعاً ·

(نقصد بالعنصر الموادّ المعلومة الخواص والتي لا يمكن ان نتنج أجساماً أبسط منها بوسائطنا الحاضرة من حرارة وكهرباء ، والمتكونة ذراتها من عين الجواهر الفردة كالحديد مثلاً · وباتحاد هذه العناصر المختلفة تتكوّن أجسام جديدة تخالف اصولها كل المخالفة فندعوها بالأجسام المركبة كالماء مثلاً المركب من الهيدروجين والأوكسيجين الخ) ·

فهل الهيدروجين اصل للعناصر · وهل ذراته المتكاثفة بنسب مختلفة كوّنت العناصر المختلفة الطبائع والصفات ؟ · قبل الجواب على ذلك نقول : ان الكتلة الكبيرة من اي مادة كانت مكوّنة من قطع صغيرة لا تخرج عن جنسها وتلك القطع الصغيرة مكونة من ذرات ، والذرات من جواهر فردة (ويقصد بالجوهر الفرد Atome

اصغر جزء من المادة) • فالتحويل الذي نبتغيه من المادة هو تحويل هذا الجوهر الفرد اما بتكاثف أجزائه ليصير مادة ثانيـة غيرها ، واما بانقسامه بالذات • واذ كان الهيدروجين أخف العنـاصر المعلومة باتفاق العلماء ، فهل امكن تكثيف جواهره او تقسيمها ؟ لم يعلم التقسيم ولم يتحقق وانما امكن التكثيف • وقد حصل من هذا التكاثف ذرات الهيدروجين • والبون ظاهر ما بين ذراته وجواهره في الطبيعة والصفات والتأثير ! •••

(نقصد من كلمة ذرة كل كتلة حاصلة من تمازج جوهرين فردين فاكثر سواء كانا من جنس واحد او اكثر ، فما تكوّن من عنصر واحد يحافظ على اصله وندعوه بالجسم البسيط وما تكوّن من عنصرين مختلفين فأكثر فهو جسم مركب وقد خصصنا بحثنا على البسائط وتركنا المركبات) •

لنعد الى الذرّات المكوّنة من جواهر هي من جنس واحد ، فلو قابلنـاها باصل جواهرها لوجدنا بينهما بوناً شاسعاً في الخواص والتأثير والصفات الظاهرة كما قدمنا• فالهيدروجين مثلاً بحالة الجوهر هو غير الهيدروجين في حالة الذرة فانا نجد له تأثيراً شديداً لا نراه في الهيدروجين الذري من حيث ارجاعه مركبات الزرنيخ والأثمد الى اصولها مثلاً • وذلك أمر يعجز الهيدروجين الذري عند الإتيان بمثله ، ومن خاصته هذه سمي بالهيدروجين الفعال او المتولد •

وكذلك الفوسفور فانه يتكاثف ذرة اكثر من ذرة اي باختلاف عدد الجواهر في ذراته تختلف صفاته وتأثيراته • فالذرة المكونة من اربعة جواهر (p 7) تدعى الفوسفور الابيض وهو مادة قابلة للتبلور تذوب بكبريت الفحم وتنصهر بدرجة + ٤٤ سانتيغراد ، تلمع في الظلام • وتشتعل بتماس الهواء من نفسها حتى بالدرجة العادية من الحرارة وهي من أشد السموم •

والذرة المكوّنة من ثمانية جواهر (p 8) تدعى الفوسفور الاحمر وهي ليست سريعة الاشتعال ولا تذوب بكبريت الفحم ولا تلمع بالظلام ولا يعادل سمها معشار سم الفوسفور الابيض وتأثيرها في العناصر الاخرى قليل •

وهكذا في الكبريت العادي أشكال مختلفة بسبب اختلاف عدد الجواهر الفردة

في كل ذرة منها ٠ والاوكسيجين الذي هو العنصر الاساسي لتنفس كل حي من حيوان ونبات موجود في الهواء المحيط بكرتنا الارضية بحالة ذرات كل منها مكوّن من جوهرين من الاوكسيجين فان تكاثفت جواهره حتى بلغت الذرة الواحدة الثلاثة الجواهر التي هي الجسم المسمى بالاوزون تصبح مادة لا تصلح للتنفس مزيلة للالوان ، قاتلة للجراثيم ، مخربة للاغشية المخاطية ، توجب عسر التنفس ثم الموت ٠

وهي صفات طارئة لم يكن لها أثر في ذرة الاوكسيجين الهوائي ٠ وكذلك الفحم فهو في بعض ذراته الكثيرة التكاثف « ماس » يسحر الالباب ببريقه ولمعانه ٠ وفي بعضها القليلة التكاثف « غرافيت » وفي بعضها فحم عادي او حجري عديم الشكل ٠ والبون شاسع بين الفحم والماس ٠ فذرة الماس مكوّنة من اربعة جواهر من الفحم والغرافيت من ثلاثة والفحم العادي من جوهرين ٠ ويقول بعض العلماء ان ذرة الماس مكوّنة من (٣٧٦٧) جوهراً اي انها متكاثفة جداً ٠

وكذلك الزرنيخ اذا سيقت أبخرته المتصاعدة الى غرفة صغيرة باردة فانه يتوضع فيها بشكل زهر الكبريت العادي مع ان الزرنيخ ذو رونق معدني وبريق خاص ٠ وهذا ناتج ايضاً من تكاثف ذرة ، اكثر من ذرة !! ٠ فهذا التكاثف سواء كان ثابتاً او غير ثابت انتج لنا نتائج واضحة عن تطور المادة بتحول صفاتها وأحوالها ٠

ولنعد الى الجوهر الذي رأينا من تكاثفه ما رأينا ولنجرب هل يمكن ان ينقسم؟!
امر انقسام الجوهر بحث كبير مازال ولن يزال موضع المناقشة والخلاف ! نعلم ياسادة ان اليونان كما اشتهر في التاريخ منبع لهذه العلوم وقد طرقوا بلا شك هذا البحث ووضعوا اذ ذاك كلمة آتوم (atome) اي جوهر فرد التي لو فسرنا معناها الحقيقي لرأيناها مركبة من كلمتي (a) ومعناها غير قابل و (tomos) تفيد الانقسام اي غير قابل الانقسام ٠ فيستنتج من هذه الكلمة ان اليونان كانوا يقولون بعدم قابلية إنقسام الجوهر « وقد دار على الألسنة قول الناس هذا جزء لا يتجزأ (مثل سائر) » ٠

***

انتقل العلم الى العرب في دور حضارتهم الزاهرة فبعضهم نحا منحى اليونانيين بالقول

بعدم قابلية الانقسام ، وبعضهم أعمل العقل وأجهد الفكر وأكثر من التجربة فقال بالانقسام . ومنذ ذلك الحين نشأ فكر عمل الذهب بالطريقة الصناعية وامكان تحويل المعادن بعضها الى بعض استناداً على قابلية انقسام الجوهر وتكاثفه ! . والادلة على ذلك اكثر من ان تحصى ، منها ما جاء في كتاب المكتسب في زراعة الذهب لابي القاسم العراقي قال : « لانها في الحقيقة قرابة الأجساد الذاتية ومتولدة من اصل مادتها لكن اعترضها عارض في الكيف بيبسها وفتتها ومنعها من السبك والتلزز والقيام » . وقول الآخر : « ولهم حجر آخر ميت في رأي العين اذا أُحكم تدبيره ، تهالك عليه الملوك وسفكوا دماء بعضهم بعضاً حياله . والحجر الآخر فهو الماء الذي يكون منه حياة هذه الاجساد الميتة لمن يحسن التدبير بتكرار السحق والتشويه والتصعيد والحل والعقد فانه يكون منه الاكسير الاعظم الذي المثقال الواحد على الف الف ومائتي الف مثقال من الرصاص يكون ذهباً ابريزا » .

وقالوا يا سادتي : ان القوة مصاحبة للمادة وهي لازمة لها غير مفارقة ، وبتجلي هذه القوة على المادة بصور مختلفة تتكون تلك العناصر المختلفة . واثباتاً لذلك : اذكر لحضراتكم ما جاء في كتاب البرهان في علم الميزان في الصنعة الآلهية لجابر بن حيان قوله : « وها انا أبدي لك معرفة قوى الاجسام الطبيعية العنصرية والتراكيب الحسية المعنوية العملية فتفهم منها بالبرهان الصنعة الآلهية . لانه قد تقرر عند الفلاسفة ان الذهب حار رطب في ظاهره بارد يابس في باطنه وهو معتدل الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وان الفضة باردة يابسة في ظاهرها حارة رطبة في باطنها قد غلب جزء من البرودة وجزء من اليبوسة . وان الأُسرب اي الرصاص بارد يابس في ظاهره حار رطب في باطنه مائل عن الاعتدال بالبرودة واليبوسة ، وان القلعي اي القصدير حار رطب في ظاهره بارد يابس في باطنه منحرف عن الاعتدال بقوة البرودة وشدة اليبوسة ، وان الحديد بارد يابس في ظاهره حار رطب في باطنه منحرف عن الاعتدال بقوة البرودة وشدة اليبوسة ، وان النحاس حار رطب في ظاهره بارد رطب في باطنه منحرف عن الاعتدال بقوة الحرارة واليبوسة وكذلك في جميع العقاقير المستعملة في هذه الصناعة الشريفة فهي اذا ظهرت فيها طبيعة كمن ضدها

واختفى ما يقابلها والحاذق الحكيم ابحث عن طبائع هذه وعن درجاتها وثوانيها ، وكم في كل مفرد منها من اجزاء الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة و يتأمل كل ماذكروه من المماثلة والمقابلة فعند ذلك تظهر له النتيجة والبرهان » . الى ان يقول : « واعلم ان الحرارة والبرودة ضدان واليبوسة والرطوبة ضدان ، والمقاومة بالضد ، والحرارة والرطوبة متصادقان والبرودة واليبوسة متصادقان والحرارة يتبعها اليبوسة في الخارج والبرودة يتبعها الرطوبة في الممازجة وكذلك الحرارة ، والرطوبة تتبعها اليبوسة . والبرودة في الممازجة والمقاومة بالمضادة . فان الاشياء تضعف باضدادها وتقوى باشكالها » . ثم يقول : « فان أعطيت الفضة ما نقصها وعدلتها بميزان الاعتدال حتى تدفع ما غلب عليها من البرودة واليبوسة استحالت ذهباً خالصاً وهكذا بقية الاشخاص المعدنية ! ! . » وقد ذكر في محل آخر من الكتاب ما مفاده : « والحرارة تعدلها الرطوبة وبهذا تعمل جميع الاعمال في جميع الكائنات والمكونات بين المواليد الثلاثة المعدن والنبات والحيوان . تألف هذا التعديل الطبيعي بعضها مع بعض وتخالف بعضها بعضاً وتجلب بين بعضها وتطرد بعضها فهذه صفة موازين الحكماء الداخلة في جميع أعمالهم المؤلفة بين طبائعهم المكتومة لجميع تدابيرهم التي دبروا بها جميع المعادن وألفوا بها جميع الطبائع وأقاموا بها جميع الطلاسم فهي سرهم النافذ فافهم ترشد » . وقد قال صاحب الشذور رحمه الله من قصيدة طويلة :

لنا من قوى مركوزة في الغرائز وقوف على مااعتاض من رمز رامز الخ .

والخلاصة : لقد ظهر من أقوال هؤلاء العلماء بانهم يعتقدون بكمون القوى المختلفة في المواد كل على حسب درجته ! . كيف نعلم وجود هذه القوى ؟ وهل يمكن ان ترى ؟ ان القوة كامنة في المادة تظهر حين ايقاظها وتحريكها . فسلك الكهرباء لا يشعر بالقوة الموجودة فيه الا حينما يمسه لامس وتختلج أعصابه او حينما يربط بمصباح كهربائي ويلمع ضوءه ، او عندما يربط بمحرك كهربائي فتبدو حركته وهكذا .

لننظر الى هذا المسحوق الابيض (مخلوط السكر وملح برتلو) ولنوقظ قواه الكامنة

فيه بحرك . « (التجربة) صبَّ على المسحوق الابيض زيت الزاج فاشتعل اشتعالاً مدهشاً » .

وها نحن نشاهد من النار والضياء والحركة ماتجزع منه النفوس وترتعد الافئدة . وهكذا البارود يلتهب عندما توقظ قواه المدخرة بقبس ، والديناميت ينفجر حينما توقظ قواه الكامنة فيه بضغط او بصدمة . والهر تبدو قواه فيهتز ويضطرب عندما يرى الفأر ماراً أمامه . والسبع يكشر عن أنيابه ويتحفز للوثوب حينما تتراءى له فريسته . والشريف ينفعل ويحتد ويحتدم بالغيظ حينما تهان كرامته . والخسيس الدنيء الوضيع يظهر لؤمه وخبثه وأذاه عندما يعتلي منصة الحكم وتكون بيده مقاليد الامور . فكل كائن لا بد ان يدخر في نفسه قوة تظهر حين الإيقاظ والدلك والتحريك . وبالطبع من الممكن تحويل هذه القوى من شكل الى شكل وانقاصها او زيادتها . ومثال ذلك القوة الكهربائية الكامنة في بطارية كهربائية تتحول بحسب تجليها الى حركة وضياء وحرارة ، والسبع المفترس ينقلب بالتربية الى حمل وديع يألف البشر ويخالطهم في ملاعبهم وفي حفلاتهم ويصادقهم ويوادهم ، ولكن اساليب هذه التربية مزية يختص بها الله من يشاء من عباده وقليل ما هم !

***

خالف علماء العرب بعضهم بعضاً في إمكان هذا التحويل . فقال ابن سينا : ان قلب اعيان صور الموجودات ممتنع ، ولا يمكن انقلاب الذهب الى الفضة كما لا يمكن انقلاب الفضة الى الذهب . ويمتنع ان ينقلب النحاس فضة كما يمتنع ان تنقلب الفضة نحاساً ، وكذلك في بقية الاشخاص المعدنية . لكن ارى بامكان دخول الصبغ الابيض على النحاس فيصير في قوام الفضة ولونها فيكون نحاساً مصبوغاً لا فضة ، ويمكن دخول الصبغ الاحمر على الفضة فتصير في قوام الذهب ولونه فتكون فضة مصبوغة لا ذهباً . فردوا عليه بقولهم : قولك هذا يدل على انك قانع بإمكان دخول الصبغ على الفضة ومسلم فيه . واما انكارك بعدم انقلابه حقيقة الى ذهب ، ذلك لانك لم تطلع الا على ظواهر أقوال الحكماء ، ولم تصل الا الى القشور فعملت أصباغاً زائفة لا قيمة لها . ولكن لو قُدّر لك وحللت تلك الألغاز ووصلت الى اللب

لقلت بان الفضة انقلبت بعد الصبغ والتحليل والتفصيل والتركيب والحل والعقد الى ذهب خالص وليست هي فضة مصبوغة كما زعمت . اذ ما ذا ينقص الفضة عن الذهب غير التلزز في الذرات ! ! . ما ابلغ هذه الحجة وما اوضح معانيها ! . هذا رأي علماء العرب الذي قر رأيهم عليه في عصرهم الذهبي ، ذلك العصر الذي كان يفاخر الجوزاء برجاله العاملين الذين انبثقت من عقولهم أشعة نور كانت اكثر تلألأً من نور الشمس . تلك الادمغة التي لبست من العلم تيجان العظمة والفخار ، وألبست الكون حلة الشرف والسؤدد ، لا تزال ولن تزال فخاراً للعالم ، ومجداً للعرب لا يبلى ولو بلي الزمان . وقد كان الغرب اذ ذاك يتيه في ظلمات الجهالة لا مرشد ولا دليل ، فسبحان مقلب الأحوال .

آه واحر قلباه ! . ذُر الرّماد على تلك النار المتأججة فأخمدها ، وغربت هاتيك الشموس بخيم الظلام على تلك الربوع ، فاستبدل الخوف بالأمن والهمجية بالمدنية والذل بالعز والجهل بالعلم ، فأصبحنا نسمع في هذا الليل المدلهمّ انات الأيامى وبكاء اليتامى واستغاثة المظلوم فلا حول ولا قوة الا بالله . وبعد ذلك تغلبت الايدي الآثمة وهدمت تلك العروش ودكتها ، واستولت على الكتب فأحرقت معظمها ، ولم تبق الا النزر القليل . وهو اليوم يزين اكثر دور الكتب في اوربا العظيمة ويعد من أهم الآثار العربية القديمة فيها . ثم ما ذا ؟ . اخذت تنبعث أشعة النور الذهبية من بين طيات تلك الصفحات التي ادخرت فيها محصلات عقول اولئك المنكودي الطالع ، فاستنار الغرب وأبصر الحقيقة . فترك التعصب والوحشية وأقبل بجد ونشاط الى حياض العلم فورد الماء زلالاً وطاب له مورداً . ثم تعلّم وعلّم فتقدم . وبني على تلك الأنقاض المندرسة صروحاً لا تفنى ولا تتهدم ؟ ! .

***

فهل بحث الغربي في المادة والجوهر وامكان انقسامه او تحوله ؟ . نعم وقد رجع في حكمه الى نظرية اليونان القائلة بعدم الانقسام ، وزاد على ذلك (لافوازيه) العالم الفرنسي الكبير بقوله بعدم إمكان تغير المادة وبكونها ليست فانية ايضاً ووضع قانونه المشهور (Dans la nature rien ne se perds rien ne se crée)

اي لا شيء يفقد ولا شيء يخلق في هذا الوجود » • خالف لافواز به العرب وله الحق لانه لم يفهم من كتبهم الا ظاهر الاقوال ولم ينجح بالأفعال • لان كتب الاقدمين عبارة عن رموز وألغاز كانوا يلقنونها خواص تلامذتهم ويكتمونها عمن لا يستحقها من اهل الغباوة والدناءة فصانوها وضنوا بها ، خوفاً على العالم من الاضمحلال وسوء المآل •

ظل هذا الاعتقاد منتشراً في اوربا ما يقرب من قرن ونيف الى ان اكتشف معدن الراديوم ابو العجائب فبطل حكم لافواز به وسقط قانونه من شاهق مجده ، اذ ثبت تحول هذا العنصر الجديد من شكل الى شكل آخر • وثبت ان المادة فانية ايضاً كما جاء في نظريات العالم غوستاف لوبون القائلة ان المادة تنقلب بالتدريج الى قوة والقوة الى الأثير ؟ ! •

واليكم ياسادتي آخر حكم بعد طول التجربة والاختبار ! • اكتشف معدن الراديوم سنة ١٨٩٩ العالم كوري وزوجته والعالم بيمون (Bmeont) • وهو معدن متصف بصفات غريبة في بابها من حيث نشره للحرارة والضياء من غير وقوع فعل كيماوي او حكمي ومن غير ان ينقص من وزنه شيء في الظاهر •

ظن العلماء بادئ ذي بدء ان اجزاء الراديوم منبع تصعدات ثابتة ودائمة ، اي ان الحرارة والضياء المنبعثين منها ناشئان من تحول القدرة المدخرة فيها الى قدرة فعالة • ولكن مكتشفه كوري وزوجته مع ثلة من ارباب العلم قالوا : ان ذلك ناشئ عن انقسام اجزاء الراديوم وتحولها الى هليوم • فوزن جوهر الراديوم ٢٢٥ والهليوم ٤ • وهاكم الاثبات :

قال كوري وضعت نثرة جافة من الراديوم بوزن ٧٠ /٠ سانتيغراماً في كرة زجاجية أخليت هواءها وسددتها على النار سداً محكماً • وبعد ان تركتها ثلاثة اشهر عدت اليها قاصداً فتحها بالمبرد « ودفعاً لكل احتمال سترت نفسي انا ومعاوني بمقوى ثخين » فلم اكد أضع المبرد الا وحدثت صدمة يصحبها اشتعال خفيف وانتثرت قطعة الراديوم في الغرفة اجزاءً صغيرة ، بقيت عشرة ايام انا ومعاوني حتى جمعتها • اما اسباب الاشتعال والصدمة فهو انقلاب معدن الراديوم الى غاز الهليوم الذي احدث تضيقاً عظيماً داخل الكرة •

فبعد ان نشر كوري تجربته هذه في جرائد باريز قام اهل العلم وقعدوا بين مصدق ومكذب ومشتبه ، ونظر صودي (Soddy) وراسمو (Rasmoy) مشاهدات كوري هذه واثبتا تحول الراديوم الى هليوم حقيقة ، وذلك انهما أخليا هواء أنبوب زجاجي وجمعا فيه تصعدات راديوم فعال ونورا محتوياته بتصعدات الكتريكية ثم عايناه بمرآة الطيف فرأيا الطيف المخصوص بالهليوم . فأقر اهل العلم حينئذ بالحكم وطأطأوا الرؤوس أمام الحقيقة الراهنة وبالطبع تحققوا ان من قال بامكان تحول المعادن بعضها الى بعض محق في دعواه و بأن العناصر من مادة واحدة . ومن ثم اخذوا ينظرون و (خصوصاً بعض المتأخرين منهم) الى العرب الكرام بعين الاعتبار بعدما كانوا يرمقونهم بنظرات الازدراء والاحتقار .

* * *

وأجمل من هذا نظرية جان بران الحديثة التي شبه بها الجوهر الفرد بالكون فقال : الجوهر الفرد مكون من اجزاء صغيرة غير متجانسة دعاها الكترون . وان هذه الألكترونات ليست بحجم واحد . فبعضها كبير وبعضها صغير ، فالكبيرة تحمل الكهرباء المثبت وتدور على محورها كالشمس ، والصغيرة تحمل الكهرباء المنفي وتدور حول الاجزاء الكبيرة كالسيارات ويتكون من هذين القسمين جملة معتدلة هي الجوهر الفرد . وان جميع الاجزاء الفردية من مادة واحدة واختلافها في الاجسام البسيطة ناشيء عن اختلاف سرعة الاجزاء الصغيرة الدائرة حول الشموس وبعدها عن مركز المحور . واختلاف وزن الجواهر بعضها عن بعض ناشيء ايضاً عن اختلاف عدد الشموس والسيارات فيها . فالجواهر الثقيلة مكوّنة من عدة شموس وسيارات كثيرة والخفيفة مكوّنة من شمس واحدة وسيارات قليلة . وهكذا فالراديوم الكثير الشموس والسيارات تتخلص بعض سياراته من الجاذبة المركزية اثناء دورها وتتصاعد بحالة اجزاء صغيرة مثبتة هي الهليوم .

فما أشبه هذه النظرية بنظرية الجلدكي وأضرابه الذين يقولون بان الفرق بين العناصر هو التلزز في الذرات وعدم التساوي في القوى من حيث الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة .

اصغوا اليّ ياسادتي واسمعوا هذه الأعجوبة . قال صاحب الشذور :

فشتان بين اثنين هذا مكوكب   يدور وهـذا مركز للراكز
وانهما عند الحكيم لواحد   لانهما من واحد متمايز
فهذا على هذا يدور وهـذه   لها مركز رأس بقدرة راكز
وبينهما ضدان منفي ومثبت   لقاؤهما فردين ليس بجاجز
وبينهما جسم مشفّ كأنه   من اللطف فيما بينها غير حاجز
فأعجب بها من اربع حال بعضها   الى بعضها عن نسبة في الغرائز

ولا أعلم ان كان هذا من باب تواردالخاطر ما بين صاحب الشذور وجان بران . او ان روح الاول حلت بالثاني بعدمضي ٨٠٠ سنة تقريباً ان كنا ممن يقول بالحلول . والله أعلم .

نتج معنا أخيراً اتفاق الكلمة على وحدة المادة وعلى إمكان التحول ، و بالطبع ليس الهيدروجين هو اصل العناصر لانه جوهر ربما يكون كبيراً ومكوناً من شموس كثيرة وسيارات ، ويأتي يوم يتوصل فيه علماء الفن لفصم هذه الكواكب بعضها عن بعض ، والحصول على أجسام أبسط من الهيدروجين . قرأت في جريدة تركية على أثر انتهاء الحرب العامة ولعلها «إقدام» مقالة مترجمة عن مجلة انكليزية مفادها : اثبات إنقسام عنصر الآزوت (وهو العنصر الموجود في الهواء المحيط بنا والذي يؤلف اربعة أخماسه تقريباً) الى غازي الهيدروجين والهليوم . فهذه خطوة كبرى في انقسام المادة ايضاً وربما سنسمع بتحول وانقسام عنصر تلو عنصر ما دام العلم يتقدم الخطوات الى الأمام والمستقبل بيد الله .

* * *

لنعد الى سؤالنا الاخير : وهو هل توصل العرب حقيقة الى صنع الذهب ؟ اجيب عن ذلك بما يأتي :

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

ولدينا اليوم من تلك الآثار القديمة بعض الكتب المخطوطة والمطبوعة من كتب فن وأدب وتاريخ الخ . وكلها تشهد بانهم كانوا يصنعون الذهب حقيقة . واليكم

ما جاء في عيون الأنباء في تاريخ الأطباء لابن ابي أصيبعة في ترجمة ابي بكر محمد ابن زكريا الرازي قال : وكان في اول امره قد عُني بعلم السيمياء والكيمياء وما يتعلق بهذا الفن وله تصانيف ايضاً في ذلك . ونقلت بالمظفر بن معرف قال : كان الرازي يقول : انا لا أسمي فيلسوفاً الا من كان قد علم صنعة الكيمياء لانه يستغني عن التكسب من اوساخ الناس ويتنزه عما في أيديهم ولم يحتج اليهم . ثم قال وحدثني بعض الاطباء ان الرازي كان قد باع لقوم من الروم سبائك ذهب وساروا بها الى بلادهم ثم انهم بعد ذلك بسنين عدة وجدوها وقد تغير لونها بعض التغير وتبين لهم زيفها فجاؤا بها اليه وألزم بردها . وقال ان الوزير كان أضاف الرازي فأكل عنده أطعمة لذيذة لايمكن ان يأكل أطيب منها ، ثم ان الوزير تحيل بعد ذلك حتى اشترى احدى الجواري التي تطبخ الأطعمة عند الرازي ظناً منه ان تطبخ مثل ذلك . فلما صنعت له اطعمة لم يجدها كما وجدها عند الرازي فلما سألها عن ذلك ذكرت له ان الطبيخ واحد بل اننا كنا نجد القدور التي عند الرازي جميعاً ذهباً وفضةً . فسبق الى ذهنه حينئذ ان جودة الأطعمة انما هي من ذلك وان الرازي قد حصلت له معرفة الكيمياء فاستحضر الوزير الرازي وسأله ان يعرفه ما قد حصل له من معرفة الكيمياء . فلما لم يذكر له الرازي شيئاً من ذلك وانكر معرفته خنقه سراً بوتر . وهكذا ذهب الرازي طعمة المطامع الاشعبية رحمه الله تعالى

وذكر ابن ابي أصيبعة ايضاً من مؤلفات الرازي اثني عشر كتاباً في الصنعة (اي صنعة عمل الذهب) الاول كتاب المدخل التعليمي الثاني كتاب المدخل البرهاني الثالث كتاب الاثبات الرابع كتاب التدبير الخامس كتاب الحجر السادس كتاب الاكسير وهو عشرة أبواب السابع كتاب شرف الصناعة وفضلها الثامن كتاب الترتيب التاسع كتاب التدابير العاشر كتاب الشواهد ونكت الرموز الحادي عشر كتاب المحن الثاني عشر كتاب الحيل وختمها بكتاب أثبت فيه ان صناعة الكيمياء صناعة أقرب الى الوجود من الامتناع سماه كتاب الاثبات . وقد كتب الامير خالد بن يزيد لابيه يزيد وكان سافر في طلب العلم وخصوصاً الكيمياء يبشره بنجاح مسعاه .

أيا راكباً نحو الشآم عشيةً يؤُم دمشقاً قف فحمل كتابيا
وبلغ يزيداً حين يتلو رسالتي وقل خالداً قد نال ما كان راجيا
الا قد ملكت الشمس والبدر عنوة وحزتهما من بعد طول عنائيا

ويقصد من الشمس الذهب ومن البدر الفضة كما هو معلوم من مصطلحاتهم . والامير خالد ممن يستشهد باقواله وافعاله اكثر علماء الكيمياء القديمة . وله كتاب الفردوس الأعلى الذي جمع فأوعى رحمه الله رحمة واسعة .

ومن الشواهد على ذلك قول صاحب الشذور : « وقد ذكروا عنه انه بدأ في تحصيل هذه الصنعة وعمره نحو الثلاثين وبقي ابحث نحو ثلاثين سنة حتى فاز بالغرض ولسوء الطالع لم يعش بعدها اكثر من ست سنوات دوّن في خلالها كثيراً من الحقائق ناظماً عقدها بقصائده الرقيقة التي تدل على مقدرته وعلو كعبه ومن قوله :

فما زلت والاحشاء تهفو كأنها لشدة ما ألقى بنار الجوى تكوى
ازيل مصون الدمع في نيل وصلها فكنت كأني منه أخبط في عشوا
فلما رأيت الوصل ينأى بجانب ولم استطع صبراً على الرشإ الاقوى
وهاج من الأشواق ما بي لو انه يهيج برضوى ذاب من حرها رضوى
سألت الذي يحيي الرميم بلطفه فيجعله للروح بعد البلى مثوى
ليفتح لي في الحب أبواب وصلها فلست على اثقال هجرانها اقوى
فقرّب مني دارها فاذا الهوى وان كان مر الطعم احلى من السلوى
ولما التقينا بالمعرف أقبلت تواصلني حباً وتهجرني زهوى
فلم أر اشهى من وصال مكدر بهجر اذا لم يفسد الكدر الصفوى
فكنت وإياها وقد لفنا الهوى كأنا معاً ماء الغمامة والقهوى
فلا تنكرا بعد الفراق اتصالنا فما برحت مني على بعدها عضواً
ولا تعجبا ان كنتما قد علمتما بتفريقنا جزئين من عودنا جزءاً
لقد خلقت مني بألطف حيلة كما خلقت من آدم زوجه حوى
واني وإياها لضدان روحها على الوصل بي تنمو وجسمي بها يذوى

فقد ضمن قصيدته هذه رحمه الله الصنعة من أولها الى آخرها .

ومن الادلة الواضحة ايضاً ما جاء في مقال الاستاذ محمد كرد علي في الجزء الثالث والرابع من مجلة المجمع العلمي شيد الله أركانه وهو يعد ما جاء في مخلفات سنان باشا احد حكام دمشق سابقاً . و باني جامع السنانية ، نقلاً عن كتاب الباشاة والقضاة الخطي الذي وجد في مكتبة برلين قوله : وفي داخل صندوق منها مائتا مثقال من الاكسير كل مثقال منها على الف قنطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً .

فكل هذه الأحاديث وكثرة هذا التواتر تدل على ان الامر واقع لا محالة .

☆ ☆ ☆

انكر على العرب امرهم هذا كثير من علماء الافرنج وعدوه سخافات وخرافات ، ومنهم من كان يطعن بهم وينسب المشتغلين به الى الجنون (والمرء عدوٌ لما يجهل) . على انهم لم يحرموا من عاقل يقدر الناس حق قدرهم ، او يذكر للموتى حسناتهم ومن هؤلاء العالم فيجيه (Figuier) الذي تعرض بمقدمة كتابه الصيدلة (La pharmacie) وهو يشرح تاريخ الصيدلة حتى دور العرب فقال وأحسن وأنصف في قوله :

Les alchimistes Arabes sont nos véritables aïeux. Si l'alchimie n'a pas trouvé ce qu'elle cherchait, si elle a échoué dans ses longs efforts pour la recherche de la pierre philosophale, elle a trouvé la chimie. Et cette conquête est autrement précieuse que la vaine arcane tant poursuivi par la passion de nos pères.

ومعناه ان سيماويي العرب هم أجدادنا الحقيقيون ، فاذا لم تجد السيمياء ولم تتوفق بعد العناء الطويل للظفر بحجر الفلاسفة فانها وجدت الكيمياء . وهذا التوفيق اثمن من الأسرار العديمة الفائدة التي أولع بها آباؤنا ايما ولوع .

اما علماء الفن الحاضر من الافرنج فانهم يبحثون اليوم عن عمل الذهب وقلب أعيان المعادن بعدما تبين لهم قابلية انقسام المادة وتحولها ، وثبت لديهم وحدة المادة ، واكبر دليل على ذلك الموسيو روترفورد العالم الانكليزي وما قام به من قلب عدة معادن بواسطة معدن الراديوم .

اما فكري الخاص ياسادة فهو إمكان (اعمال الذهب بالطريقة الصناعية) و بان

الأقدمين قد صنعوه حقيقة ، ولكنهم حجبوا صنعهم هذا بستار كثيف من الرموز ، لم يتمكن احد من الناس ان يحله الا من لقنوه ذلك ، واخذوا عليه بنفس الوقت العهود ان لا يبوح به الا للاهل . وقد مات هؤلاء وتواروا في التراب وتوارت معهم صنعة الذهب وبقيت سراً مجهولاً . ومها حاولنا كشف القناع عن هذا السر فلا نستطيع لان كل عالم منهم وضع لنفسه رموزاً خاصة به وبمريديه فقط لا يطلعون احداً عليها مها حاول . وكثير منهم من قتل ولم يبح بكلمة واحدة . والحق معهم في ذلك لان في الذهب قوام الهيئة الاجتماعية فان أبتذل اندك ذلك القوام وعمت الفوضى . ولايخفى انه عندما صنع الماس الصناعي في فرنسا وضع قانون يقضي باعدام كل من يصنع الماس صيانة لثروة الملوك والأسر الشريفة والمصارف الخ .

اما من يتردد من آونة الى أخرى الى دمشق وغيرها ممن يدعون صنع الذهب فهؤلاء قوم لصوص أشرار يعبثون بعقول السذج فيختلسون اموالهم ويذهبون . فان كانوا حقيقة يصنعون الذهب فلِمَ يموهون على الناس بالباطل وقداطلعهم الله على سر يغنيهم عن ارتكاب هذه الرذائل ؟ ولكنهم اتخذوا من الغدر واللصوصية اكسيراً يحولون به ذهب الناس الى جيوبهم ، لا النحاس فضة ولا الفضة ذهباً ! ! ...

احذركم ياسادة من الوقوع في فخهم فانهم قوم ماكرون ، ومن الله لا يخافون ، يستبيحون في نيل غرضهم هذا كل ما يخالف الدين والوجدان ، ولا يسألون عن سلطة ولا سلطان .

اذكر لكم يا سادتي نبذة من اعمالهم في دمشق وكثيراً ما هي : جاء رجل قبل الحرب العامة الى دمشق وقد ظنه القوم ولياً طياراً من ظواهره التي كان يخدع بها الناس . وقد وقع في شركه رجل مسكين فقد اخيراً ثروته وثروة امرأته وبعض ذويه . لان المحتال خلا به وهو في ضيافته يوماً وقال له يا ولدي نحن نصنع الذهب اذهب الى السوق واحضرمعك كذا وكذا . فذهب المسكين لإحضار ما أُمربه ونفسه تحدثه بالسعادة ولم يعلم ما خبأه له من المكيدة . وفي غيابه حضر بعض قطع الفحم ووضع فيها ليرة ذهبية واحكم سدها ، فجاء صاحب الدار باللوازم فوضع المحتال الزئبق في البوتقة واحاطها بالفحم من كل طرف ، ثم وضع الفحمة المحشوة على فم البوتقة ،

ووضع فوقها فحماً ايضاً للحصول على حرارة عالية واضرم النار ، وما هي الا ربع ساعة تقريباً حتى اخرج من جيبه زجاجة فيها بعض نقاط من ماء ذهبي اللون وقال : هذا هو الاكسير واتأسف لانه على وشك النفاد وصب ما فيها في البوتقة ، و بالطبع تبخر الزئبق خلال ذلك ولم يبق منه اثر وانصهرت الليرة من شدة الحرارة وانصبت داخل البوتقة فعندما تحقق ذلك ابرقت عيناه بالسرور وقال الحمد لله لقد نضج وصح العمل . ثم اخرج البوتقة وصب ما فيهــا بقالب حديدي صغير على شكل منشور مستطيل ودفعها بعد ان بردت الى صاحبنا وقال له اذهب الى الصاغة و بع هذه وموعد اجتماعنا غداً ان شاء الله .

ذهب الأبله وعرض قطعة الذهب على صائغ فتأمل فيهــا وفحصهـا على المحك وقال هذا ذهب بعيار ٢٢ واشتراها منه بقيمتها تقريباً . فجنّ الرجل واتى مسرعاً الى امرأته وقص عليها ما كان فقالت يجب ان تدعو الشيخ ثانيــة وتعمل كل الاساليب لارضائه علّه يمن علينــا بتعليمك هذه الصنعة (واخذوا يخمسون الرايات) و يبنون قصوراً شاهقة في الهواء على اساس من الماء .

قام الرجل والشمس لم تشرق بعد وذهب الى الشيخ وانحنى امامه ليقبل رجله . فأنكر عليه الحال وقال : ياشيخ لا تكن هكذا يجب ان لا نتظاهر ، فأنا لا أُطلع احداً على هذا السر ولو ملأت لي الدنيا ذهبــاً ، تكتم ما امكنك . والخلاصة ظل بواعده و يخلف حتى عيل المسكين صبراً واخيراً جاء اليــه وقال : يا رجل انما نمتنع عن المجيء لان الاكسير انتهى . فقال يا سيدي اصنع منه . قال جيد ولكن يحتاج الى خميرة من الذهب الخالص وكل درهم منه يكفي لقلب رطل من الزئبق او الرصاص الى ذهب خالص باذن الله .

فذهب الرجل الى امرأته يستشيرها فقالت : صحيح انك ابله هذه حلاي الذهبية ارهنها واعطه الدراهم التي ادخرناها ليعمل لنــا اكسيراً كثيراً تستغني به عن التعب (ونقعد انت في البيت بلا عمل كلما خلصت النفقــة نعمل طبخة وهكذا « ننبسط » « شوفي » بالدنيا غير الهم والكدر) . فقال : حقّاً ما تقولين واخذ الاساور من ساعته و باعها واحضر ٢٠٠ ليرة من دكانه وهي المال ورأس المال . فكان المجموع ٣٥٠

ليرة نقر بيًا قدمها لصاحبنا (هدية باردة) فقال له بعد ان وضعها على الرف ولم يكترث بها : نعمل اليوم في الليل ان شاء الله خوفاً من الفضيحة وقام يصلي . فهيأ صاحب الدار ما لذ وطاب من الزاد فأكلوا وانبسطوا وجلسوا يتسامرون حتى قارب نصف الليل قام الشيخ وأوقد النار وأخرج من جيبه حشائش غلاها بالماء حتى قرب الجفاف فاستخرج مادة كالحبر الأحمر ثم وضع في البوتقـة قطعاً من الرصاص واكثر من الفحم فاتقدت النار وأخذ يضع من آونة الى أخرى نقطة نقطة من حبره على الرصاص ويحرك ويعزم ويقرأ ويتمتم بعض كلمات غير مفهومة ، ثم قال له فجأة قم ونم يا رجل فقد صح العمل وتحتاج العملية الى تدبير على هذه النار ساعتين أخريين ايضاً وأصرّ عليه فامتثل الرجل خوفاً من غضب الشيخ ونفوره . وقام من ساعتـه ونام ومن شدة تعبـه لم يستيقظ حتى مضى على بزوغ الشمس ساعة ونصف ، وقد أيقظتـه امرأته وقالت له اين الشيخ أفاق وهو يفرك عينيه وقال ربما يكون نائماً مسكين كم تعب في الليلة الماضية . هيئي القهوة ، هيئي الشاي . قالت لم أجد الشيخ مطلقاً قام كالمجنون وذهب الى غرفة الشيخ فلم يجد له أثراً وفتح الباب واخذ يفتش عليه في كل محل كان يتردد اليه فلم يعثر عليه وهكذا أضاع الشيخ وأضاع ماله وأضاع حلي امرأته وندم ولات حين مندم .

* * *

وزيادة على ذلك فان من يرى مثل ما رأى صاحبنا يتعلق بحب متكتماً وطامعاً في السعادة ويشتغل ولا يكاد يجمع شيئاً من المال الا وينفقه في هذا السبيل . والحق معه لان الرجل الذي يدرس في حياته ولم يطلع على المعادن وأشكالها وصفاتها ويرى لاول وهلة زئبقاً رجراجاً وفضة براقة لامعة وذهباً وهاجاً يُستلبُ عقله ولا يستمع نصح ناصح مهما حاول في إقناعه بان هذه الطرق التي يتبعهـا عقيمة لا نتيجة منها .

وها انا ذا أجري لحضرتكم بعض التجارب البسيطة التي ربما يضحك من عملهـا صغار الطلاب :

« تجربة إحراق الماء » وضع سوائل غير ملونة واستحصال الوان مختلفة الخ .

ان الناظر اليّ لاول وهلة ممن لم يقرأ شيئًا من هذه العلوم يظن اني اعمل السحر او آتي بالعجائب او ابواب سيا وغير ذلك على انها في الحقيقة من ابسط البسائط لمن يعلم سرها ويعرف رموزها . وهكذا يا سادتي ان الذين صنعوا الذهب كتموه عن الناس ورمزوا له الرموز التي لو وقف على حقيقتها الانسان لعمل عملهم وتوصل لما توصلوا اليه على ايسر وجه .

رموزهم القديمة لا كرموزنا فان لم يتلقنها المتعلم بطول المدة من فم الاستاذ فلا يمكن ان يدريها او يعلم شيئًا منها . ومنذ قرأت قول الكيماوية الشهيرة مارية القبطية « اذا سمعتم في كتبنا بكليساً او هدماً او ضرباً او دلكاً او تحليلاً او تصعيداً فهو جميعه شيء واحد وهو نقع الطبائع في مائنا » رجعت بالخيبة . كيف يمكن الوصول ولهم للقصدير مثلاً الاسماء الآتية : « القصدير ، المشتري ، انك ، ابرص ، صرار ، كوكب وكسر ، قلعى ، رخو ، كبريت ابيض ، زهرة بيضا ، القاضي ، الصابون ، النسر الطائر ، دماغ النحاس ، مهلك الاجساد ، السم الابيض ، الرخص ، المنتن ، الزفر ، الاصفر ، السعد الاعظم ، حجر الأشمث ، زواش ، السادس » وللزئبق : « عطارد ، الماء الثقيل ، الجسد الرطب ، العبد ، الآبق ، الضرار ، السحاب ، البرق ، العنان ، روح الاجساد ، الماء الخالد ، الجسد السائل ، التنين ، ماء الحياة ، نطفة ، الطير الابيض ، الذهب السائل ، الملك ، اللؤلؤ الرطب ، الهوى المتجسد ، العنقاء ، هرمس ، الثاني الخ » وقس عليهما بقية الاجساد المعدنية .

ويلخصون عملهم بقول بعضهم :

خذ الضرار والطلقا　　وشيئًا يشبه البرقا
اذا مازجتهم سحقا　　ملكت الغرب والشرقا

ولعمري ان من يحل هذا الرمز يعمل الذهب . ويعجبني جداً قول ابي قاسم العراقي فانه بعد ان ذكر طريقة العمل بقصة غريبة اذكر لكم شيئًا منها . قال :

وهذه الهيولى واحدة اعني من شيء واحد وليست من اشياء متفرقة ولا مخالفة ولا مختلفة لان الاشياء المختلفة المتفرقة اذا تركبت فرقها النار . وهذه المادة لا يمكنها تأثير صلاح دون نقعها وتركيبها حتى تظهر فيها هذه الخاصة . وانما احتيج الى تفصيلها

لعلة وهو ان الاكسير انما هو زراعة ذهب فاحتاجوا الى غذاء يدخلونه على هذا النوع ليمو وينيع ويثمر فأخذوا من الأغذية ما يمازج ذلك النوع في حال الطبيعة ممازجة صلاح لا فساد لكن من جوهره فأدخلوه عليه برطوبة عفنتها وحللتها ولطفتها ، فلما لطفت صعدت الى اعلى الاناء غذاء لا ثفل فيه وفضل تحتها ثفل لطيف يسمى الملح ، فأصعدته بالنار اليابسة فطلع جرادة كجرداة الفضة خالصاً من سواد الارض وظلمتها وكثافتها وكان ارضاً محروثة وكان الغذاء الاول ماء كيموسياً فغرسوا في هذه الارض المحروثة جنينهم بل غصنهم وسقوه ماءهم الكيموسي مع التلطف بالتربية والحرارة اللطيفة فطلع ذلك النبات المعدني وابنع واثمر والطف زهراً وخميراً سمياً يلقى على الورق فيصيره ذهباً اجود من ذهب المعدن . وهذه الهيولى المقومة لصورة الاكسير توجد في شجرة واحدة تطلع بارض المغرب منها فرعان عاليان لا يدركهما طالبهما الا بالجهد والتعب ليأكل من ثمرهما . وغصنان دونهما لكن ثمرهما اشد يبساً وتعليكاً من الاثنين المتقدمين ونور احدهما احمر والثاني ما بين البياض والسواد . وغصنان دونها وهما ادهى وارخى من الاربعة المتقدمة ونور احدهما اسود والآخر ما بين البياض والصفرة . وهذه الشجرة تنبت في البحر المحيط على وجهه كما ينبت النبات على وجه الارض وهذه الشجرة التي من اكل منها خضع له الانس والجن . وهي التي نهي آدم عن اكلها فلما اكلها استحال من الصورة الملائكية الى الصورة الانسانية . وهذه الشجرة تنقلب في كل صورة من صور الحيوان . وقد توجد هذه الهيولى في طائر جثته جثة انسان وجناحاه جناحا طائر له اربعة ارجل ويدان ، اما ارجله فحقيرة واما يداه فعز يزتان لمنفعتهما ولو علم الجاهل ان اليدين لا قوام لهما الا بالاربعة ارجل لكان عليهما اشد حرصاً من اليدين . وقد توجد هذه الهيولى في جزيرة الاندلس الباردة في منتهى البحر المحيط الجامعة للكهوف الاسطبوسية . وربما توجد في جبل بارض الهند في صخور مختلفة الالوان والطعوم والارايح والخواص . فمنها صخرة يأويها اسد شرس وربما كان حاميها واعلاها محيط باسفلها وادناها متصل باقصاها ورأسها موضع ذنبها وبالعكس ومنها صخرة يحملها حيوان بحري محترق مختلف المشي وهذه الصخرة لها قرنان يظهران في كون ولادتها حتى اذا مضي من عمرها

النصف عادت مدورة الجثة فاذا ذهب نصف عمرها عاد القرنان كما هما الى آخر عمرها وهذا دأبها في كل الاوقات ٠

ومنها صخرة يتداول على حملها حيوان شبق على عنقه جلة حيوان آخر مؤلف يحمل احد الثقلين وهذه الصخرة معدن الخبث والرداءة والمكر والغل ومنها صخرتان احداهما ذكر والاخرى أنثى وصخرتان احديهما مصرية والاخرى كرجية ، وفي هذا الجبل كل فن من فنون العالم ٠ لا يوجد حقد ولا مكر الا وهو فيه ، ولا يوجد علم وحلم وفلسفة الا هو فيه ، ولا يوجد حمد وسخاء الا وهو فيه ، ولا يوجد لهو ولا طرب وغناء ومزمار واوتار ونكاح ومزاح الا وهو فيه ، ولا يوجد وزارة وزير ومشير ومدير الا وهو فيه ، من ارض الهند ملك ومن ارض مصر حكيم ومن ارض فارس سباق ٠

فهذه اوصاف هذا الجبل وما فيه من العجائب فافهم فانها اشارات الحكماء يفهم معناها من كان للحكمة اهلاً ومن هو بالرموز وفكها اولى ، واعلم انا قلنا كذا وكذا لما كان لنا في ذلك والله فضل ولكن يؤخذ منا على سبيل الاستهزاء ٠ وقد اتكلناك على عقلك بعد الله ونعم من اتكلناك عليه والحمد لله وحده ٠ فان فهمت وكنت عالماً بلغتنا نجحت والا ننصحك ان لا تضيع مالك ووقتك ودينك لانا اهل مدينة لا يمكن الدخول اليها الا من يعلم بلغتنا ٠ وقال صاحب الشذور :

اذا كنت في حل الرموز مدانيا اخانا فقد نلت الذي كنت راجيا
والا فلا ترتع بها فهي روضة قد امتلأت للرائدين افاعيا

الى ان قال :

تمنى رجال من ذوي الجهل علمنا وما كل ذي علم ينال الامانيا

ثم يقول :

هي الصنعة المضروب من دون نيلها من الرمز اسوار تشيب النواصيا
ولكنها ادنى اذا كان عالماً الى المرء من حبل الوريد تدانيا
واني لاستحيي من المرء يرتمي به الظن في فكر الرموز المراميا
ولم يجعل العلم الرياضي روضة وكان عن العلم الالهي لاهيا

اعد نظراً فالظن كالعين لا ترى ... على البعد اجرام الجسوم كما هيا
أبالظن والتخمين يدرك سرنا ... وقد بلغت فيه النفوس التراقيا

***

كأن لها منها عليها أدلة ... ومن رمزها فيما يضلك هاديا
ولكننا لا نمتري ان دونها ... سنيناً ترى ايامهن لياليا
أنورثها من بعدنا شر عصبة ... كهولاً وشباناً وشيباً شواسيا؟
تحاول ان تغشي بها كل منكر ... ونأمل منها ان تبيح المعاصيا
فلم نختلف في ان نواري علمنا ... باجداث رمز لا تجيب البواكيا
ليدركن منها غابر الدهر سرنا ... جديداً وان كانت طروساً بواليا

***

فما قول بعض اخواننا الذين خدعوا بهذه الصنعة الخلابة المملوءة بالآمال وكلها أحلام نائم ، ولا يزالون يواصلون ليلهم بالنهار . فقد أضاعوا ثرواتهم واموالهم واوقاتهم ولم يحصلوا على شيء وقد شابت نواصيهم وهم غافلون .

أفيقوا يا اخواني واستيقظوا من سباتكم فكل الطرق التي سلكتموها عقيمة لا توصلكم لشيء وكل هذه الآمال خيالات وأوهام وهي كالسراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً .

عبد الوهاب القنوالجي



تصحيح نهاية الارب

« تتمة اغلاط الجزء الخامس »

وفي ص ١٢٦ س ٧ قوله — (وطارق يجهد في بعض الأوقات عفوها) سياق الكلام في أن نعم الله على الانسان قد يشوبها مفاجئ من كوارث الدهر يعكّر صفوها (وطارق يجهد عفوها) ولا شيء من معاني (جهد) يناسب هنا فلعل صوابه (يجهم) بالميم يقال (جَهَمه) ومثله (تجهّمه) اذا استقبله بوجه كالح عابس . و(العفو) الفضل والمعروف وخيار الشيء وأجوده . فالمعنى أن آلاء الله ونعمه على عبده يتجهّمها في بعض الاوقات ويواجهها بالشر والتنغيص طارقٌ من طوارق الدهر وداهية من دواهيه .

وفي ص ١٢٦ س ١٣ قوله — (فلله الحمدُ الذي جعل الخ) (الذي) صفة لله تعالى اذ هو الذي جعل ما يتخلل النعم من المصائب عنواناً لعنايته بعبده فالصواب ان يقال (فالحمد لله الذي الخ) فتقع الصفة عقب الموصوف من دون فاصل : اذ لا يصح ان يقال (لزيدٍ الشكر الذي أعطاني مالاً) وانما يقال (الشكر لزيد الذي الخ) وليس الكلام شعراً حتى يقال ان التقديم والتأخير ضرورة شعرية .

وفي ص ١٢٨ س ١ قوله مهنئاً بزواج : بالبنين والرفاء (والزمن الوهد والعزّة القعساء) (الوهد) المنخفض من الارض ولا يوصف به الزمان كما لا علاقة له بالتهاني فهو محرف وصوابه (والزمن الرغد) و يوصف الزمن بالرغد كما يوصف العيش والحياة قال الشاعر :

(مُنىً إن تكن حقاً تكن غاية المنى   والا فقد عشنا بها زمناً رغداً)

وفي ص ١٢٨ س ٤ قوله — (وتهللتُ جذلا . و بسطت في الدعاء مذلا) لا معنى (لمذل) هنا فهي في الراجح محرفة عن كلمة (بذل) . والبذل السعة في العطاء يقال (رجل بذْل) بسكون الذال من باب الوصف بالمصدر للمبالغة كما يقال (رجل عدل) . وهنا لا بدّ من أحد أمرين : إما تسكين ذال (جذْلا) لتزاوج (بذْلا) الساكنة الذال . وإما تحريك ذال (بَذِلا) لتزاوج ذال (جَذِلا) المتحركة الذال .

وفي ص ١٢٩ س ١٦ قوله — (في عسكر لجب) ضبط بفتح الجيم وصوابه كسرها : يقال : جيش لَجِب (بكسر الجيم) اي انه ذو لَجَب (بفتحها) واللّجب اختلاط أصوات الابطال وكثرتها في ساحة الحرب . إلا ان يدعى ان وصف الجيش باللجب المفتوحة الجيم من قبيل الوصف بالمصدر كما مر لا سيما ان السجمة قبلها (ثم طلع غير مرتقب) بفتح القاف .

وفي ص ١٣٠ س ٩ قوله في تهنئة بمولود (والله المسؤول ان يهنئك منه صُنْعا يحسن في مثله الحسد) لا معنى لهذا الكلام كما ترى و (صنع) ضبط بضم فسكون . وصواب الكلام (ان يهبك منه صَنَعا) و (صَنَعًا) بفتحتين مفعول به (ليهبك) من الهبة و (من) تجر بدية اي انه تعالى يمنحك ابنا صَنَعا . يقال : فلان صَنَع اللسان بالتحريك اذا كان بليغًا .

وفي ص ١٣٣ س ٨ قوله — (انه يعدّ كل مه) صوابه يعدّ كلامه اي يهيئه و يروّزه في نفسه قبل ان ينطق به .

وفي ص١٣٣ س ٨ قول الرشيد في (عبدالملك بن صالح) مذ اتهموه أمامه بانه يهيء الكلام قبل إلقائه ولا يحسن الارتجال فقال (بل هو طبع) . المعهود في هذا التركيب (شاعر مطبوع) بمعنى انه يأتي بالشعر من دون تكلف . ولم يقولوا (شاعر طبع) وهرون الرشيد انما يصف الرجل بكونه بليغًا يرتجل كلامًا فصيحًا من دون استعداد و(الطبع) (بكسر الباء) ذوالطبَع (بفتحها) وهو الدنس و (رجل طبِع) أيضًا بمعنى انه دنيء لئيم فلعل صواب عبارة الرشيد (بل هو صَنَع) بفتح النون يقال فلان صَنَع اللسان اذا كان بليغًا كما مر . وهذا ما أراده من نفي الفهاهة عن الرجل وإثبات المقدرة الكلامية له .

وفي ص١٣٣ س١٤ قوله— (ثمامة بن أبرش) صوابه (ابن أشرس) النميري كان زعيم فرقة القدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق مات سنة ٢١٣ هجرية .

وفي ص ١٣٤ س ٦ —

(كان الزمان بن أبقى ومن أخذت صروفه مذنبًا طورًا ومنتصلا)

قوله (منتصلاً) مما أخطأ فيه الشاعر وصوابه (متنصلاً) يقال (تنصل الى

فلان من ذنبه) بمعنى تبرأ منه . وكأنه لما لم يستقم له الوزن (بمنصل) عدل الى (منتصل) لكن المعاجم لم تذكر انتصل بمعنى تنصّل .

وفي ص ١٣٤ س ٩ —

(كالسيف منتصلاً والبحر مندفقاً والبـدر مؤتلقاً والغيث محتفلا)

قوله (منتصلا) في صفة السيف خطأ وصوابه (منصلتا) من (أصلت سيفه) جرّده من غمده فهو مُصْلت ومنصلت ولا يقال : انتصله فهو منتصل .

وفي ص ١٤٧ س ٩ قوله (وما كل من بشَّر باشر ولا كلُّ من عار عاور) هكذا بالعينين المهملتين وهو خطأ وصوابه (ولا كلّ من غار غاور) بالغينين بالمعجمتين ومعنى (غار) أنِفَ وحمي عنـدما تنتهك حرمته ومصدره الغيرة . أما (غاور) فمن الغارة على العدو يقال غاور العدو مغاورة أغار عليهم .

وفي ص ١٥٤ س ١٥ — (وصارت رؤية الدماء تُفزعهم : فلو احتاج احدهم لتنقيص دم لمرضٍ لأَجنح من خوفه وما احتجم) قوله (أجنح) اي مال كجنح ولكن لا يناسب ان يكون هذا المعنى مراداً هنا وانما المناسب ضده وهو التقهقر والنكوص . فالكلمة محرفة وصوابها (لأَحجم من خوفه وما احتجم) وبذلك يقع بين (أحجم واحتجم) جناس الاشتقاق وهو مما يهمّ كاتب الرسالة مراعاته والاستكثار منه .

وفي ص ١٦٠ س ٤ قوله في صفة معركة (والجياد من المحاجر تحفى . و بالجماجم تنتعل) (المحاجر) لها معانٍ لا تناسب هنا فهي إذن محرّفة عن كلمة (الحوافر) جمع حافر والمعنى ان تلك الجياد وهي تكرُّ في المعركة كانت تحفى حوافرها وتنفى فتستعيض عنها بجماجم القتلى .

وفي ص ١٨٤ س ٩ (كلّ غيث الايام ان أخلف الغيـ ـث أطلت سحابه بانهمال) صوابه (كان غيث الأيام الخ) وهذا البيت موضعه من القصيدة بعد الأبيات التي بعده كما يظهر بأدنى تأمل .

وفي ص ١٨٥ س ١١ قوله —

(ترى الحتوف عُلوقاً في أسنته لدى الوغى وشهاب الموت قد لمعا)

لم نجد معنى مناسباً لقوله (عُلوقا) بالمعجمة هنا . فربما كان الصواب (علوقا)

بالمهملة اي ان الحتوف معلّقة ومعقودة بأسنة رماحه · و (العَلوق) بالعين المهملة المفتوحة اسم من اسماء المنية فلعل معنى (ترى الحتوف عَلوقا في أسنته) على هذا ان الحتف والهلاك تراه موتاً مجسماً او منيّةً مجسمة في أسنة رماحه · والقصيدة التي منها هذا البيت للمتنبي يرثي بها ابا بكر الإخشيد محمد بن طغج لكنها ليست موجودة في ديوانه المخطوط الذي في مكتبتي ولا في ديوانه الذي شرحه العلامة اليازجي فليحرص على هذه القصيدة محبو شعر المتنبي · ومطلعها :

(هو الزمان مشتٌّ بالذي جمعا   في كل يوم ترى من صرفه بدعا)

وقد ذكر منها في نهاية الأرب واحد وعشرون بيتاً ·

وفي ص ١٨٧ س ١ (خذل الرمح وهو عونك لو با   نَ لقاءٌ وثار نقعٌ قتام)

قوله (بان) لا يناسب هنا وصوابه (حان) اي قرب ودنا ·

وفي ص ١٩٤ س ١٣ (وأردَتْ ابن زياد بالحسين فلم   يبؤ بشسع له قد طار أوظفر)

هذا البيت من المرثية العبدونية التي مطلعها :

(الدهر يُفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الاشباح والصور)

وقوله في البيت السابق (قد طار) ضميره راجع الى (الشِسع) والشسع لا يطير فالصواب ما في شرح ابن بدرون على القصيدة المذكورة المطبوع في ليدن — (قد طاح) بالحاء المهملة اي سقط · وشسع النعل اذا بلي انحل وسقط · وفي نسخة لهذه القصيدة (قد طاخ) بالخاء المعجمة ولا معنى له ايضاً ·

وفي ص ١٩٦ س ٤ (وأسبلت عبرات للعيون على   دمٍ بفجٍّ لآل المصطفى هَدَر)

صوابه (بفخٍّ) بالخاء المعجمة لا الجيم و(فخّ) وادٍ بمكة كما في معجم البلدان وهو الموضع الذي قُتل فيه أولئك الهاشميون سنة ١٦٩ هجرية ·

وفي ص ١٩٩ س ٨ —

(من لي ولا من بهم ان عطلت سنن   وأخفيت ألسنُ الايام والسِيَر)

لعل الصواب (وأُخفتت) كما في النسخة المطبوعة في (ليدن) ومعناها أُسكتت من خفَتَ الصوت سكت · و يدل عليه كلمة (ألسن) ·

وفي ص ٢٠٣ س ١٤ (عاق الزمان شقيق الجود لم يقِه   أهل ولم يفده مال ولا ولد)

لا معني (لعاقَ) هنا وصوابه (غال) اي اغتاله الزمان وأخذه على غرة ٠

وفي صفحة ٢٠٤ سطر ٦ قوله — (هو الخطب الذي ابتدع الرزايا) ابتدع بمعني اخترع ولا معني لكون مصيبة هذا الفقيد اخترعت المصائب وانما مصيبته ابتدأت المصائب وكانت فاتحتها اذ كل المصائب التي تقدمتها ليست شيئًا بالنسبة اليها ٠ (فابتدع) محرّف عن (ابتدأ) ٠

وفي صفحة ٢٠٥ سطر ١٤ قول ابي تمام :

(وأصبحت الوفود اليك وقفًا على ان لا مفاد لمستفيد)

(وقفًا) كذا بقاف ففاء لكن الذي في ديوان ابي تمام (وفقًا) بتقديم الفاء وهي أنسب معنىً من (وقفا) قال صاحب التاج في استدراكاته على القاموس (جاء القوم وفقًا) اي متوافقين ٠ والمعنى ان الوفود أصبحوا في مجيئهم اليه متوافقين لكنهم لم يستفيدوا شيئًا لانهم وجدوه قد مات ٠ والقصيدة مرثية في (عمير بن الوليد) ٠

وفي صفحة ٢٠٦ سطر ٢ قوله — (وانثغر الثغر) (الثغر) هنا بمعني البلد على حدود العدوّ ٠ ولا يوجد في اللغة فعل (انثغر) كما قال المصحح الفاضل ٠ فهو إذن محرف عن (اثّغر) بثاء مثلثة مشدّدة وأصله (اثتغر) من الافتعال ٠ ومعنى (الاثّغار) ان يلقي الصبي ثغره اي أسنانه ٠ فالشاعر يقول ان الثغر الذي كان يحميه الفقيد قد اثّغر وهو كناية عن فقده جماله أو قوته أو أسباب منعته التي كانت متوفرة في زمن الفقيد بحيث ماعاد ينتفع بذلك البلد كما لا ينتفع بالثغر بعد سقوط أسنانه ٠

وفي صفحة ٢٠٦ سطر ٦ —

(وما مات حتى مات مضرب سيفه من السَلّ واعتلت عليه القنا السُمر)

قوله (من السلّ) أي ان الفقيد لم يمت حتى مات سيفه من كثرة سلّه له من الغمد في المعركة ٠ ولكن الشاعر انما يصف صبر الفقيد وحسن بلائه في تلك المعركة التي قتل فيها فهو لم يسلّ سيفه فيها الا سلّة واحدة بالطبع ٠ ولا معنى لوصفه بانه كان يسلُ سيفه في المعركة ثم يغمده ثم يسلّه دواليك ٠ فكلمة (السلّ) مصحفة عن (الشلّ) بالشين المعجمة وهي مصدر شلّهم بسيفه اذا طردهم بين يديه طردًا ومثله كسأهم وكسعهم أي انه لم يمت حتى مات سيفه وانكسر من شدة ما شلّ أعداءه به ٠ و يؤيد

هذه الرواية الرواية الاخرى في البيت وهي (حتى مات مضرب سيفه من الضرب الخ) .

وفي صفحة ٢١٤ سطر ١ قوله — (وجزّ في اللحم بل براه) صوابه (وحزّ) بالحاء المهملة اي قطع أما (الجزّ) بالجيم فيستعمل في قطع الصوف والشعر والحشيش وثمر النخيل لا اللحم .

وفي صفحة ٢٢٠ سطر ١٤ —

(فأنكحها الضريح بغير مهر   وجهّزنا الفتاة بغير شوره)

صوابه (فأنكحنا) بضمير المتكلمين اي زوّجنا فتاتنا للضريح . ليتزاوج مع قوله بعده (وجهّزنا) . ومعنى (شورة) خجلة .

وفي صفحة ٢٢٣ سطر ٢٠ قوله — (وان زهدوا في الأجر اذ جمّش الوغى)الخ . الجمّش معنى لا تناسب إرادته هنا . وانما صوابه (حمش) بالحاء المهملة وهو (بالتخفيف والتشديد) بمعنى اشتداد الامر واضطرام النار . ويحتمل ان تكون (جمش) محرفة عن (حمي) إذ يقال حمي الوطيس . و (الوطيس) الوغى .

وفي صفحة ٢٢٧ سطر ١٣ قوله — (مكرُهُ بي وبك سحيق) صوابه سيحيق .

وفي صفحة ٢٢٨ سطر ٣ قوله — (وملاذُها فالى هذه الغاية) صوابه (الى هذه الغاية) بدون (فاء) اذ لا داعي لها هنا .

وفي صفحة ٢٥٠ سطر ١ قوله — (وهي بين أهلها دُوَل وسحال) بالحاء المهملة خطأ وصوابه (سجال) بالجيم اي مرة تكون لهذا ومرةً لذاك .

المغربي

زيارة مخطوط قديم

دلني بعض فضلاء دمشق على كتاب خطي قديم في فن الجراحة ، موجود عند مالكه (خورشيد افندي الچركسي) من متقاعدي المالية ، زرنا الرجل في داره في الدرويشية أمام جامع (سباي) واطلعنا على الكتاب ، فاذا هو مجلد متوسط الحجم مخروم الاول والآخر ، ومكتوب اسمه على ضمامة رؤوس اوراقه هكذا :

« الحاوي في الجراحة » كما رقم على ظهره : انه من كتب (الطبيب عبد القادر عوده) الدمشقي الذي كان حياً سنة (١٢٧٩) للهجرة . ثم ملك الكتاب ورثته من بعده . وقد فهمت من الفاضل الدمشقي الذي كان معي في زيارة هذا المخطوط كما حدثني غيره ايضاً — انه بعد موت الطبيب عوده المذكور كانت كتبه الطبية تباع اكداساً في أسواق دمشق بثمن بخس دراهم معدودة .

تصفحت الكتاب فاذا هو مبوَّب بحسب أعضاء الجسم وما يطرأ عليها من العلل التي تقتضي العمليات الجراحية : كالعين والحنجرة وأعضاء التناسل في الرجال والنساء الخ . والمؤلف يبني فصول كتابه غالباً على النظريات الطبية المنسوبة الى من تقدمه من الاطباء : فهو يقول مثلاً (القول او الكلام على رأي الطبيب فلان في عملية العضو الفلاني) .

وخط الكتاب قديم ويلتزم كاتبه في كتابة بعض حروفه شكلاً خاصاً مثل الهاء واللام الف .

ومن غريب امر هذا الكتاب ان حرف الدال لا يذكر فيه الا منقطاً اي ذالاً معجمة . فما أدري ان كان المؤلف او الناسخ من بعض البلاد التي ينطق اهلها الدال ذالاً دائماً او انه من أُمة السريان او العبرانيين او غيرهم ان كانوا ينطقون الدال ذالاً .

ومن مميزات هذا الكتاب انه يرسم صور آلات الجراحة المختلفة بالحبر الأسود او الأحمر . لكن الرسم غير متقن ولا محكم الوضع . كما ان خط الكتاب كذلك . فالكتاب يصوّر عدة صور من أشكال السكاكين والمباضع والمشارط والمحاقن وغير

ذلك ويخص كل عمليـة بآلة من هذه الآلات الجراحية . ومن لطيف ما رأيته فيه صورة محقنة على هيأة المحاقن الزجاجية المعروفة اليوم في الصيدليات وهي بحجم اصبع اليد . ونسميها نحن محقنة او حُقنة او ظلمبة اما المؤلف فيسميها (زَرّاقة) .

وعلى أطراف صفحـات الكتاب هوامش بخط (الطبيب اليـاس البيروتي) (وبعض هذه الهوامش يقول — تعليقاً على احدى العمليات الجراحية — انه هو (اى الياس البيروتي) عمل هذه العملية سنة بضع وسبعين وثمانمائة . فقد دلتنـا هذه الهامشة على الزمن الذي كان يعيش فيه الطبيب الياس المذكور . كما دلتنا على ان مؤلف كتاب (حاوي الجراحة) الذي نحن في صدد الكلام عليه كان قبل ذلك التاريخ .

وعلى حاشية الكتاب ايضاً هامشة تعلن وفاة (ميخائيل بن جرجس الطبيب) فمن هذه الهوامش يظهر ان الكتاب ملكه أطباء سوريون نصـارى ولكن من الذي ألّفه من الأطباء ؟ ؟ .

غادرت بيت الرجل صاحب الكتاب شاكراً لطفه وحفاوته وانقلبت الى (دار المجمع العلمي) فراجعت فهرست ابن النديم فوجدته يقول : ان لابي بكر الرازي الطبيب المشهور والمتوفى سنة (٣١١) للهجرة كتاباً في الطب اسمه (الحاوي) ويسمى ايضاً (الجامع الحاصر لصناعة الطب) وهو يقسم الى اثني عشر قسماً .

والقسم الثالث منه في (الرئبة والجَبْر والجراحات) و يريد من (الرئبة) رَأْبَ الصَدْع والوثأ في الرِجل .

والرّأاب هو الذي يرأب الاعضاء الموثوءة . فهل كتاب (الحاوي في الجراحة) الذي زرناه هو القسم الثالث من الكتاب حاوي الرازي في الطب ؟ ؟ .

هذا ما قاله صاحب الفهرست ، اما صاحب كشف الظنون فقد ذكر كتابين طبّيين باسم (الحاوي) : احدهما (الحاوي في علم التداوي) لنجم الدين محمود بن الشيخ (صائن الدين إلياس) الشيرازي . قال وهو مجلد واحد مرتب على خمس مقالات . وكلها تدور حول العلل والحميات والأدوية . ولم يذكر ان بينها قسماً يتعلق بالجراحة فليس له علاقة إذن بالمخطوط الذي زرناه وقلنا ان اسمه (الحاوي في الجراحة) .

والكتاب الثاني الذي ذكره صاحب كشف الظنون هو (الحاوي في الطب) لابي بكر الرازي وقد نقلنا آنفاً ما قاله صاحب الفهرست فيه · وزاد صاحب كشف الظنون ان (رشيد الدين أباسعيد بن يعقوب المسيحي القدسي) المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة علّق على (حاوي الرازي) تعاليق وقد اختصره (الدخوار) وهو مهذب الدين عبد المنعم الذي أنشأ مدرسة الطب الدخوارية في دمشق سنة ٦٢١ وهل مخطوطنا الذي زرناه ووصفناه هو تعاليق الطبيب رشيد الدين المسيحي القدسي التي قال صاحب كشف الظنون انه علقها على (حاوي الرازي) ؟ لكننا ذكرنا آنفاً ان اسم المخطوط مرقوم عليه هكذا : (الحاوي في الجراحة) ·

بقي علينا ان ننظر ما يقوله ابن ابي أصيبعة في كتابه (طبقات الاطباء) قال : ان كتاب (الحاوي) هو اجل كتب (ابي بكر الرازي) وأعظمها في صناعة الطب وذلك لانه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه · ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله · وتوفي (الرازي) ولم يفسح له في الأجل كي يحرر هذا الكتاب) ·

ومما استفدناه من محاضرة زميلنا الدكتور اسعد الحكيم التي ألقاها منذ حين في ردهة المجمع ان (حاوي الرازي) امتدت شهرته الى اوربا · وان (شارل) ملك سيسيليا (صقليه) ارسل وفداً الى ملك تونس يطلب منه كتاب (الحاوي) المذكور وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد اي بعد وفاة مؤلفه الرازي بنحو اربعمائة سنة · وذكر الدكتور اسعد افندي ايضاً كتاباً في الطب اسمه (التصريف) لمؤلفه الطبيب ابي القاسم الزهراوي الاندلسي ويظهر من وصف الدكتور لكتاب (التصريف) وما هو مصور فيه من رسوم الآلات الجراحية ان مخطوطنا (الحاوي في الجراحة) هو القسم الجراحي من كتاب (التصريف) للزهراوي وان بعض من علق بيده الكتاب ظنه (حاوي الرازي) فكتب عليه انه (الحاوي في الجراحة)· وان لم يكن من كتاب التصريف فيكون قسم الجراحة من كتاب (حاوي الرازي) او لا ولا فهو (تعليقات) رشيد الدين القدسي على القسم الجراحي من كتاب حاوي الرازي ·

وعلى كل حال لا بد لمجمعنا العلمي ان يكلف احد اطبائنا المدققين زيارة هذا المخطوط مرة ثانيــة فينظر ايّ الكتب الثلاثة هو ? أو انه كتاب آخر غير ما ذكرته وارتأيته ٠

المغربي

اخبار وافكار

زقاق الاربعين

طالعت في مجلة المجمع العلمي ما كتب في زقاق الاربعين في حلب ونسبته الى أربعين عيــلة أُتي بها الى حلب بأمر السلطان مراد الى غير ذلك من الآراء ٠ وانا أرى ان فريقاً ممن يروي هذه القصة في حلب يسند هذا الامر الى السلطان سليم الاول الذي دخل حلب صلحاً بعد موقعــة مرج دابق المشهورة سنة ١٥١٦ وفريق آخر يسنده الى السلطان مراد الرابع الذي دخل حلب سنة ١٦٣٩ بطريقــه الى العراق لأخذ بغداد من شاه العجم ٠ ومع ما في هذا الاختلاف من الدلالة على سخافة هذه القصة لا يوجد سند تاريخي يصح الاعتماد عليــه باسناد هذا الامر الى احدهما ٠ بل ان التاريخ الصحيح ينقضها ٠

فان ما كتبه عبد الله دلال سنة ١٨٣٨ في أصل تاريخ أُسرته مسنداً هذا الأمر الى السلطان مراد لا يصح الاعتماد عليــه لبعد هذا الكاتب عن زمان دخول السلطان المذكور الى حلب وما هو بالحقيقة الا ناقل لهذه الحكاية التي كانت شائعة في حلب على عهده وما على الناقل لها سبيل لتحقيقها ٠

فقد قال الشماس بولس الحلبي الذي كان مع والده مكاريوس مطران حلب في مقدمة النصارى الذين خرجوا لاستقبال السلطان في صفحة ٤٤ كتابه في سفرة والده المذكور الذي طبعنا منه نخبة :

« وفي السنة الرابعة من رياسته التي هي سنة ٧١٤٧ للعــالم (١٦٣٩ مسيحية) وافى السلطان مراد مجيشــاً من القسطنطينية الى حلب ودخلها يوم الخميس ١٢ تموز

وعلى كل حال لا بد لمجمعنا العلمي ان يكلف احد اطبائنا المدققين زيارة هذا المخطوط مرة ثانية فينظر ايّ الكتب الثلاثة هو؟ أو انه كتاب آخر غير ما ذكرته وارتأيته ٠

المغربي

اخبار وافكار

زقاق الاربعين

طالعت في مجلة المجمع العلمي ما كتب في زقاق الاربعين في حلب ونسبته الى أربعين عيلة أُتي بها الى حلب بأمر السلطان مراد الى غير ذلك من الآراء ٠ وانا أرى ان فريقاً ممن يروي هذه القصة في حلب يسند هذا الامر الى السلطان سليم الاول الذي دخل حلب صلحاً بعد موقعة مرج دابق المشهورة سنة ١٥١٦ وفريق آخر يسنده الى السلطان مراد الرابع الذي دخل حلب سنة ١٦٣٩ بطريقه الى العراق لأخذ بغداد من شاه العجم ٠ ومع ما في هذا الاختلاف من الدلالة على سخافة هذه القصة لا يوجد سند تاريخي يصح الاعتماد عليه باسناد هذا الامر الى احدهما ٠ بل ان التاريخ الصحيح ينقضها ٠

فان ما كتبه عبد الله دلال سنة ١٨٣٨ في أصل تاريخ أُسرته مسنداً هذا الأمر الى السلطان مراد لا يصح الاعتماد عليه لبعد هذا الكاتب عن زمان دخول السلطان المذكور الى حلب وما هو بالحقيقة الا ناقل لهذه الحكاية التي كانت شائعة في حلب على عهده وما على الناقل لها سبيل لتحقيقها ٠

فقد قال الشماس بولس الحلبي الذي كان مع والده مكاريوس مطران حلب في مقدمة النصارى الذين خرجوا لاستقبال السلطان في صفحة ٤٤ كتابه في سفرة والده المذكور الذي طبعنا منه نخبة :

« وفي السنة الرابعة من رياسته التي هي سنة ٧١٤٧ للعالم (١٦٣٩ مسيحية) وافى السلطان مراد مجيشاً من القسطنطينية الى حلب ودخلها يوم الخميس ١٢ تموز

راغباً في الذهاب الى مدينة بغداد لكي يحوز لها وخرجت جميع طوائف النصارى التقوه باصناف أثواب القماش الثمين ناشرين ذلك على حافة الطريق ومعهم الأب السيد المطران والكهنة وبقية المسيحيين مع أرباب الحرف والصنائع ممتدين من خان طومان الى نفس ساحة الميدان وكان يوماً مشهوداً يعدّ من الاعمار ويُذكر في الأجيال الآتية مدى الادهار وكانت السلطانة الافرنجية امرأته قد تقدمته بايام ثلاث معها يلوذ بها في القوجيات اي العربانات وأقام في حلب ستة عشر يوماً وما كانت الا كأنها رؤيا في المنام لان بقدومه قدم الخير الوفي وأخصب فيها كل شيء وصار طالع سعودها بوجوده ولم يعوزها شيء مع كثرة من صحبه من العساكر المشابهة بكثرتها القطر القاطر ... » .

ثم في كلام الشماس المذكور فيما تقدّم من كتابه المشار اليه عن المطارنة الذين جلسوا في حلب قبل والده ما يكفي للدلالة على وجود كثرة المسيحيين فيها من قبل وعلى عدم صحة هذه الحكاية باسناد هذا الأمر الى السلطان سليم .

ثم ان العقل السليم لا يسلم ان السلطان المذكور الداخل صلحاً الى حلب — بأول الفتح العثماني للشام — يكلف أهلها المسلمين بان يأتوا بعدد من النصارى الغرباء لينازعوهم فيها أسباب الرزق .

ومن المقرّر تاريخياً ان هذا السلطان كان أشد سلاطين آل عثمان تعصباً للاسلام ليستبد بامره فيه منفرداً بدون منازع بل قد تجاوز بهذا ما جبل عليه الطبع الانساني من الحب وحفظ حياة أهله وذويه الأقربين . ومعلوم ان هذا السلطان اغتال اعمامه واخوته وأولادهم جميعاً خشية ان يكون له منهم منازع او مزاحم على الملك . وكذلك — على ما يقال — دس السم لابيه السلطان بايزيد لانه كان يريد ان يعهد بالملك بعده لولده البكر أحمد شقيق سليم . وقد أوقع باربعين الفاً من أهل مملكته اغتيالاً ولم يكن لهم ذنب سوي كونهم من الشيعة . وما أشهر الحرب على الشاه اسماعيل الكبير الا لكون هذا أعلن نفسه انه حامي الشيعة دون السنة في الاسلام .

وكان في عزم هذا السلطان ان يبيد من بلاد الروم كل المسيحيين لكن منعه بحكمته وزيره الذي أوعز الى بطريرك الروم القسطنطيني — بالاتفاق مع شيخ

الاسلام — ان يحتج بعهد النبي العربي ومعاهدة الإمام عمر و براءة السلطان محمد الفاتح التي استشهد على صحتها بعض شيوخ الانكشارية الذين كانوا أحياء من ايام الفتح . والغاية كان السلطان سليم أبعد الناس طبعاً عن مثل هذا الامر . واذا صح بعدما تقدم بيانه انه لا يجوز ان نسلم بصحة هذه القصة وجب ان نبين سبب هذه التسمية فنقول :

بعد ان استولى السلطان سليم على مصر والشام والعراق وكل بلاد العرب والروم أخذ بعض حكومات اوربا يعقدون معه ومع خلفائه معاهدات تجارية وكانت حلب حينئذ الطريق الوحيد من البحر الى العراق وارمينية وبلاد العجم والهند وسائر الجهات الشرقية فتجدد حينئذٍ عمرانها بعد خرابها بجيوش تيمورلنك سنة ١٤٠٠ وصارت ذات تجارة واسعة لا تضاهيها مدينة في الشرق اذ أقبل عليها تجار الافرنج على اختلاف بلدانهم وممالكهم واتخذوا لهم فيها عمالاً من النصارى الشرقيين يعتمدون عليهم في تصريف بضاعتهم في حلب وسائر الجهات الشرقية وكثروا فيها جداً وكلهم يميلون الى التجارة والصناعة من الشام والعراق وأرمينية وغيرها وتألفت منهم طوائف كبيرة ذات شأن بعدد رجالها وغناها من الروم والأرمن والسريان والموارنة والكلدان ولكل طائفة مطران وكنيسة وكهنة ممتازين حتى صار بعض بطاركة الروم والارمن والسريان يؤثرون الإقامة فيها في القرن السابع عشر على دمشق وسواها وكان عدد الروم فيها يوازي عدد الذين هم في سائر البطركية الانطاكية في جميع مدن الشام والعراق .

ومعلوم ان المهاجرين اذا كثروا في مدينة اتخذوا لهم فيها بيوتاً في المحلة الخالية من السكان او الخراب حيث لا يجدون مزاحمة وبناء على هذا اتخذ المهاجرون الى حلب محلة زقاق الاربعين التي كانت خراباً وعمروها وسكنوا فيها ومن هنا تولدت قصة الاربعين عيلة .

وهذا الاسم قديم قبل السلطان سليم وهو منسوب لكنيسة قديمة كانت عامرة هناك على اسم الاربعين شهيداً الذين قتلوا جميعهم صبراً في مدينة سبسطية سنة ٣٢٠ وكذلك كان لهم او على اسمهم كنائس في بيروت وحمص وجوار دمشق فقد استولى

عليهـا الخراب وزالت رسومها ولم يبق لها الا اسمها ملازماً لهذه المحلات مراعاة لحق الجوار ودليلاً على سابق عمرانها ولم يقم مقامها كنيسة جديدة الا في مدينة حمص فانها تجددت في محل الكنيسة القديمة الكنيسة الكاتدرائية الحالية للروم وهي مشهورة بسعتها وجمالها · ومن يعلم عظم الإكرام الذي حازه هؤلاء القديسون في الشرق عند جميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وطقوسهم ورغبة الشرقيين في إقامة الكنائس الكثيرة على اسماء القديسين لا يتردد في هذا الحكم · وفوق كل ذي علم عليم ·

الخوري قسطنطين الباشا

==((×✡×))==

ارجوزة الضاد والظاء

كان السيد عبد الله مخلص نشر في مجلة المجمع (جزء ٤ ص ١٦١) أرجوزة في الضاد والظاء وقال انه لم يعلم اسم ناظمهـا ومن نظمت برسمه الذي يظهر انه كان من وزراء زمانه · ثم نشر في المجلة في هذا الجزء (ص ٤٠٥) ان صديقه العلامة احمد باشا تيمور كتب اليه ان اسم الناظم الشيخ محمد الخزرجي ·

وقد ظفرت في بحثي في الخزائن عن البقية الباقية من نفائس المخطوطات في حلب بمجموع في خزانة الكتب في التكية الاخلاصية هي التي من وقف الشيخ اسحق النجشي فيه عدة رسائل · من جملتها أرجوزة تشتمل على الظاء والضاد قال في اولها انها نظمت في عون الدين بن هبيرة الوزير في بغداد واول الأرجوزة ·

الحمـد لله العظيم الواحد	ذي المنّ والافضال والمحامد
أرسل نبينـا أفضل الخلائق	محمداً أكرم به من صادق
صلى عليـه ربنـا ومجدا	في كل وقت دائماً وجددا
فكل ما ينظم للإفاده	فذاك منسوب الى العبـاده
لا سيما في مدح عون الدين	مخجل كل عارض هتون
من حكم الآمال في الأموال	تحكم الآجال في الرجال

هذا ما نقلته وقتئذ من الأرجوزة وأظن ان بعد هذا البيت هو قوله وقد نظمت عدة من الكلم الخ فقد علم من نظمت برسمه ومافيها من الزيادات ٠ عضو المجمع العلمي
محمد راغب الطباخ

—((×❖×))—

استدراكات على محاضرة

في محاضرتكم [1] التي نشرتموها في الجزء الاول من هذه السنة وكنتم ألقيتموها في المدرسة الفاروقية بحلب وذكرتم فيها مدرسة ضيفة خاتون — قلتم ان ضيفة ولدتها أمها في غير دار ابيها حيث كانت أمها ضيفة فسماها ابوها ضيفة ٠ هذا ليس بصواب والصواب ما ذكرناه في تاريخنا (اعلام النبلاء) نقلاً عن ابي الفدا من انها لما ولدت كان عند ابيها الملك العادل ضيف فسماها ضيفة ٠ وابو الفدا أيوبي وهو أدرى باهل بيته ٠

وقلتم في الصفحة التاسعة ومن مدارس حلب النورية والعصرونية الخ ثم ذكرتم الشعيبية ثم الصهيبية وقلتم ان هذه كانت وراء باب انطاكية مباشرةً قامت على انقاض أقدم جامع في حلب بناه ابو عبيدة ٠ والحال ليس في الشهباء مدرسة يقال لها الصهيبية والمدرسة الواقعة في هذا المكان ولم تزل باقية الى الآن من عهد نور الدين الشهيد هي الشعيبية نسبةً الى الشيخ شعيب الاندلسي المتوفى سنة ٥٩٦ وقد كان اول مدرس بها لما جعلها نور الدين الشهيد مدرسة وقد كانت قبل ذلك مسجداً يسمى مسجد الغضايري وهو اول مسجد بني في حلب بعد الفتح كما ذكرتم ٠

وقلتم بعد أسطر ان فيها دار القرآن الحبشية بالباء الموحدة والصواب الحيشية بكسر الحاء وبالياء المثناة نسبةً الى قرية تبعد ساعة ونصفاً عن المعرة يقال لها حيش وهي عامرة الى الآن وقد جاء ذكرها في تاريخي في الجزء الخامس في ترجمة ابي بكر الحيشي وقد ذكرنا انه ولد بقرية حيش من عمل حماة باقرب من المعرة ٠ ولم أجد في معجم البلدان ذكراً لهذه القرية ولعلها لم تكن في زمنه ٠

وقلتم بعد العبارة المتقدمة : ذكر الرحالة ابن جبير في المئة السادسة انه كان يتصل

(١) الخطاب للاستاذ رئيس المجمع ٠

من الجانب من جامع حلب مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة الخ . فالتعبير بكان يفيد ان لا أثر للمدرسة في زمنه وعبارة ابن جبير هكذا : ويتصل به (اي بالجامع) بالجانب الغربي مدرسة للحنفية الخ وهذه المدرسة لا تزال عامرة الى الآن وهي المسماة بالحلوية وقد ذكرتموها فيما ذكرتموه من المدارس في حلب في هذه الصفحة وقد تكلمت عليها في غير موضع من تاريخي وأثبت صورة محرابها العظيم في الجزء الرابع منه (ص ٥٠١) .

و يجدر ان نذكر هنا ما نشرته مجلة الزهراء المصرية في الجزء الثامن من سنتها الثانية حيث قالت : كتب الاستاذ احمد زكي باشا مقالة في الشورى عن محراب المسجد الأثري البديع الذي شيده في قلعة حلب نور الدين الشهيد في سنة ٥٦٣ ه ثم أتمه وأكمله ابنه ابو الفتح اسماعيل عام ٥٧٥ فقد رأى الباشا (اي في سياحته الى حلب في صيف العام الماضي وقد كنت معه حينما زار القلعة) ان محراب المسجد منتزع من مكانه وتحقق انه كان موجوداً في سنة ١٩٢٢ م وقد صور بالتصوير الشمسي في تلك السنة وتدل صورته على انه من الخشب النفيس وان النقوش التي عليه انتهت عندها براعة المتفنن العربي فوصل في صناعته الى حد الاعجاز .

قال الاستاذ زكي باشا : اني رأيت كثيراً من المحاريب في بلاد مختلفة فلم أر مثل هذا المحراب الخشبي المفقود في حلب سوى محراب خشبي آخر في نفس حلب وهو محراب المدرسة الحلاوية . ثم قال : وأجمل محراب على وجه الارض هو الباقي في أطلال مسجد قرطبة بأرض الفردوس الاسلامي المفقود وهو من الفسيفساء وقد وصفته في (السفر الى المؤتمر) وبعده محراب المسجد الأقصى وهو من الرخام البديع الصنعة وبعدهما محراب الحلاوية بحلب وهو من الخشب انتهى .

عضو المجمع العلمي
محمد راغب الطباخ

اثر تاريخي

لا يخفى ان المشهور في قبر ابي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الصحابي الجليل والفاتح العظيم (هلك في طاعون عمواس · وعمواس ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة وقيل اربعة مما يلي بيت المقدس) أنه في غور الأردن وان السيف الأثري المحفوظ في دار الآثار العربية بدمشق والمنسوب الى ابي عبيدة كان عثر عليه في ذلك القبر في القرن الماضي وقد زار القبر أخيراً بعض فضلاء الناصرة الاستاذ القس أسعد منصور ووقف على كتابة محفورة في حجر على الضريح فنسخ الينا صورتها وهي كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم · أمر بانشاء هذه القبة المباركة على ضريح الامير ابي عبيدة (ابن) الجراح رضي الله عنه — مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ابو الفتح بيبرس بن عبد الله قسيم امير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله · مما وقف عليه وحبسه من نصف مناصف دير معلّ تونين من حمص من عمل حصن الاكراد المحروس تحبيساً مؤبداً أثاب الله وقفه بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدقين أجر المحسنين · وبنظر الامير الأجلّ الأعز الكبير نسله (كذا) ناصر الدين الجنكلي الظاهري السعدي نائب مملكة عجلون المحروسة · في شهر ذي الحجة سنة ست مئة وخمسون وسبع » اه ·

(المجمع) وقد جاء في (دائرة المعارف العربية) (وقبر ابي عبيدة بغور بيسان عند قرية تسمى عُميا [1] وعلى قبره أشياء تشير الى جلالة قدره اه ·

(١) وقوله (عميا) بالياء غلط وصوابه (عُمتا) بالتاء ·

مطبوعات حديثة

ديوان ذي الرمة

طبع في مطبعة (كمبريدج) الانكليزية انكلية على نفقة مدرستها بعد ان عني بتصحيحه وشرحه بالانكليزية والعربية معاً المستشرق كارليل هنري هيس مكارتني وهو يقع في ستمائة وخمسة وسبعين صفحة كبيرة

(من هو ذو الرمة ؟) : جيد الطبقة واسع الشهرة وصافاً كالجاهلية للديار والابل والليل والوحش ، هو شاعر بدوي اسلاميّ متقدم ، نشأ في البادية على اثر المخضرمين معاصراً للفرزدق وجرير والراعي مرافقاً للاحوص وكثير عزة وابن مروان وابن ابي عتيق ونصيب وغيرهم من كبار شعراء المدر فكان مثلهم حجة في اللغة ولكنه كان يخالفهم بكثرة استعمال الغريب والحوشيّ من الألفاظ ولم يكن ذلك يعيبه في زمانه وانما حطه عن درجة الفحول عدم خبرته في أساليب المديح والهجاء ، وفساد ذوقه في انتقاء المناسبات واختيار ما يليق وما لا يليق من الكلام فيها ٠

قيل دخل يوماً على عبد الملك الخليفة الأموي فاستنشده فأنشده مطولته البائية المثبتة في اول ديوانه (ص ١—٣٥) وهي زهاء مئة وثلاثين بيتاً يقول في مطلعها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

وكان عبد الملك أشتر الجفن لا يرقأ دمع عينه فتوهم انه يعرّض به ، فغضب حتى كاد يخرج عن حلمه وقال له : مالك ولي ياابن الفاعلة وأمر به فطرد من حضرته مدحوراً مقهوراً ، وحرم من الجائزة التي كان يمني نفسه بنيلها ، وكان له ناقة اسمها (صيدح) كثيراً ما يذكرها في شعره ويناقشها الحديث والسمر اثناء سيره وسراه ٠ قيل قصد يوماً الأمير بلال بن ابي بردة الاشعري مادحاً ومستمنحاً فأنشده قصيدة تخلص الى المديح فيها بقوله :

سمعتُ الناس ينتجعون غيثاً فقلتُ لصيدح انتجعي بلالا

فقال بلال ما دام المنتجع غيثي ناقتك لا انت فأعطوه حبلاً يقود به صيدح ٠ وقيل قال له : « او لم ينتجعني غير صيدح يا غلام اعطه حبلاً لصيدح » فخجل

ذوالرمة وخرج خائباً محروماً من رضى الأمير وجائزته . وفي ذلك ما يكفي للدلالة على سوء اختياره للمعاني وفساد ذوقه في مقابلات ذوي الأخطار ممن يرجى سيبهم ويخشى بأسهم .

(ما هو اسمه ؟) : اسم ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي لقب ذا الرمة لانه دخل خباء معشوقته عرضاً وكان لا يعرفها ، فلما استحسنها استسقاها فأبت ازدراءً ، فقالت له أمها اسقيه يا ميّ فنهضت وأتته بماء وكان على كتفه رمة اي حبلاً بالياً فقالت له اشرب ياذا الرمة ، فلزمه اللقب واشتهر به دون اسمه . وهو من مشاهير عشاق شعراء العرب ، ومعشوقته التي اشتهر بها مية بنت مقاتل بن كلبة جدها قيس ابن عاصم المنقري احد سادة العرب وأجوادها ، شبب بها ردحاً من الدهر وله معها مواقف غرامية تنم عن وجد مقرون بالعفاف ، فاضت بذكرها اسفار اصحاب السير والمؤرخين ثم طردته وسبته مرة بايعاز زوجها عاصم ، وقد كان نزل به ضيفاً على رجاء ان يلتقي بها فأحس به المزور وأنزله في فناء الخباء لا داخله وبعث اليه بزاد وهو هناك غيرةً منه على امرأته ، فلما جنّ الليل وغفت الأعين اخذ ذوالرمة يتغنى ليسمعها قائلاً :

أراجعة يا ميُّ أيامنا الأُلى بذي الاثل ام لا ما لهن رجوع

فغضب زوجها وأمرها ان تجيبه وتشتمه متهدداً إياها بالقتل ان لم تفعل فصدعت بامره على رغمٍ منها فذهب غيلان ساخطاً عليها ثم ما برح ان هجا زوجها وتمنى له الموت بابيات منها (ص ٦٧)

ألا ليت شعري هل يموتن عاصمٌ ولم تشتعبني للمنايا شعوبها
دعا الله من حتف المنية عاصماً بقاضيةٍ يدعى لها فيجيبها

ثم هجا مية ايضاً فقال : (ص ٦٧٥) .

الا حبذا اهل الملا غير انه اذا ذُكرت ميٌّ فلا حبذا هيا
على وجه ميٍّ مسحةٌ من ملاحةٍ وتحت الثياب الخزي لو كان باديا
ألم تر ان الماء يخبث طعمه وان كان لون الماء أبيض صافيا
اذا ما أتاه وارد من ضرورة تولى باضعاف الذي كان ظاميا

وقيل انها ليست له وانما وضعت عن لسانه . ثم علق بامرأة غيرها اسمها خرقاء العامرية وشبّب بها في جملة قصايد تاركاً ذكر ميٍّ وحبها ، ومن جملة ما قال في خرقاء :

تمام الحج ان تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

فكأنه جعل الوقوف على محبوبته منسكاً من مناسك الحج وفي كل ذلك مايدل على حمق به وهوج في خُلُقه · مات في طريقه الى الشام وهو قاصد هشام الأموي بانفجار دمل سنة (١١٧) للهجرة وله من العمر اربعون سنة على أصح الأقوال ودفن بحزوى التي كان يكثر من ذكرها في شعره · قيل ولما أدركته الوفاة قال :

يا ربّ قد اشرفت نفسي وقد علمت علماً يقيناً لقد أحصيت آثاري

يامخرج الروح من جسمي اذا احتضرت وفارج الكرب زحزحني عن النار

ومن مختارات شعره في مي قوله (ص ٦٦ — ٦٧) :

اذا هبت الارواح من كل جانب به اهل ميٍّ هاج قلبي هبوبها

هوىً تذرف العينان منه وانما هوى كل نفس حيث حلّ حبيبها

تناسيت بالهجران ميّاً وانني اليها لحنّان القرون طروبها [1]

وقوله (ص ٢١٢ — ٢١٣) :

ألا يا اسلمي يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطرُ

لها بشر مثل الحرير ومنطقٌ رخيم الحواشي لا هراء ولا نزرُ

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان في الالباب ما تفعل الخمرُ

وتبسم لمح البرق عن متوضحٍ كنور الأقاحي شاف [2] الوانها القطر

ومن حسناته قوله (ص ٦٧٥) :

جزى الله البراقع من ثياب عن الفتيات شراً ما بقينا

يوارين الملاح فلا نراها ويخفين القباح فيزدهينا

وأجمل ما جاء في وصف (النعسان) قوله (صفحة ١٣٠) :

سقاه الكرى كأس النعاس ورأسها لدين الكرى من آخر الليل ساجدُ

(بما ذا امتاز شعر ذي الرمة ؟) : ومن غريب معانيه قوله في وصف الحرباء (صفحة ٣٧) ولم يسبق لغيره ان يعني بوصف هذه الدويبة :

(١) القرون والقرونة النفس · (٢) شاف اي جلى ·

كم دون ميّة من خرق ومن عَلَم ... كأنه لامع عريان مسلوب [١]
ومن ململمة غبراء مظلمة ... ترابها بالشعاف الغبر معصوب [٢]
كأن حرباءها في كل هاجرة ... ذو شيبة من رجال الهند مصلوب [٣]

ويقول ايضاً في الحرباء (صفحة ٨٧) :

اذا جعل الحرباء مما أصابه ... من الحر يلوي رأسه ويرنح
ونشوان من طول النعاس كأنه ... بحبلين من مشطونة يترجح [٤]

وهو معنى قلما يخطر على خيال شاعر . وقال ايضاً :

أطرت الكرى عنه وقد مال رأسه ... كما مال رشّاف الفضال المرنح [٥]

ثم يقول في محل آخر (صفحة ٤٧) وهو يشبه بيت الهندي المصلوب المثبت آنفاً .

وقد جعل الحرباء يبيض لونه ... ويخضرّ من لفح الهجير غباغبه
ويشبح بالكفين شبحاً كأنه ... اخو فجرة عالى به الجذع صالبه

ويقول فيها ايضاً :

لظى تلفح الحرباء حتى كأنه ... اخو جرمات بزّ ثوبيه شابح [٦]

ومثله (ص ٥٩) :

كأن يدي حربائها متشمساً ... يدا مذنب يستغفر الله تائب

ولا أدري ما الذي أولعه بالحرباء حتى استنزف قوى دماغه وصقاله وهذيذاً به ومما يميز به في شعره تغاليه في استعمال الحوشي من الكلام كقوله من قصيدة في محبوبته الثانية خرقاء العامرية (ص ٣٧) :

---

(١) الخرق الفلاة تخترقها الرياح ، والعَلَم الجبل الذي تهتدي به الى ما حوله من الارض والبلاد ، واللامع الذي يشير بثوبه من بعيد الى غيره . (٢) الململمة الارض التي تلمع بالسراب ، والشعاف رؤوس الجبال ، والمعصوب الراسخ الثابت . (٣) الهاجرة اشتداد الحر في منتصف النهار . (٤) النشوان السكران ، والمشطونة بئر فيها اعوجاج ينزع منها بشطنين اي حبلين . (٥) الكرى النوم و يراد برشاف الفضال شارب فضلة الكأس ، والمترنح المتمايل من السكر . (٦) يشبه الحرباء بمجرم عُلّق على العود بعد ان نزع ثوبه عنه فهو عليه مشبوح اي مبسوط اليدين كالمصلوب .

قفراً كأنَّ أراعيل النعام به قبائل الزنج والحبشان والنوبِ

هيهات خرقاء الا ان يقرّ بهـا ذي العرش والشعشعانات الهراجيب

وقوله في وصف ربع معشوقته الاولى مية وفيه وصف للثيران (ص ٣٩) :

تمشي به الثيران كل عشية كما اعتاد بيت المرزبان مرازبه

كأن سحيق المسك رياً ترابه اذا هضبته بالطلال هواضبه

اذا سيَّر الهيف الصهيل وأهله من الصيف عنه أعقبته نوازبُه

سأل ذو الرمة الفرزدق يوماً ما بالي لا أُذكر مع الفحول قال قصر بك عن غايتهم بكاؤك في الدمن ، ووصفك للابعار والعطن . وقد أجمع ثقات الجهابذة من نقدة الشعر على انه واسع الخيال غواص على المعاني عجيب التشابيه ، ولكنه سيء الاختيار اصرف مواهبه في وصف خسائس الاشياء والتافه من المواضيع فلا يجيد الا شكوى لوجد ووصف التباريح والتناغي مع الحسان فهو من هذا القبيل في البدو مثل عمر بن ابي ربيعة في الحضر ولولا ذلك لابزَّ شعره شعر المجلين النابغين من أبناء جلدته في صدر الاسلام بلا مراء ولا جدال .

(ما يؤخذ على الناسخ والطابع ?) : ان هذه النسخة التي اختيرت للطبع قد خلت من مقدمة خلافاً لسائر الدواوين والاسفار القيمة وليس للناظم فيها ترجمة حال تعرف منها هويته مع ان ذا الرمة مشهور معلوم الأحوال وهذا ماحدانا لان نجهد النفس ونوطئ لمقالتنـا بترجمة موجزة تعرب عن حقيقة الناظم وتحالف طباعه وأوضاعه لعامة القراء استكمالاً للفائدة ، وفي النسخة أغلاط عروضية لم ينتبه اليها المصحح كقوله من قصيدة (ص ٢٠٠) يهجو بها امرؤ القيس وهم بطنٌ من بطون العرب .

اذا المرئيُّ شبَّت له بنات عصبن برأسه ابةً وعارا

اذا المرئيُّ عيق ليوم فخر أهين ومدّ أبواعاً قصارا

اذا مرئية ولدت غلاماً فألأم مرضع نشغ المحارا

ولا يخفى مافي صدر البيت الاول من الخلل . ثم حيث ذكرت الاثافي وهي الحجارة التي توضع عليها القدر على النـار جاءت الاشافي او الاسافي واظهر المصحح جهله لمعناها . وقد جاء الشرح مزيجاً موجزاً من الانكليزية والعربية لا يفهم منه

شيء من معاني الناظم وأغراضه فهو لاينفع العربي ولاالانكليزي النفع المراد من الشعر الا ان يقصد به تفسير بعض الغريب من الالفاظ مما تغني عنه معاجم اللغة .

اقول هذا وانا معجب كل الإعجاب بآثار هي كنوزنا تكشف عنها هم رجال الغرب التراب ثم يتحفنا بها أفاضلهم مجلوّةً مصونةً كقلائد العقيان من مثل هذا الكتاب فلهم منا ما يجدر بهم من الشكر، ومن ربهم ما يستحقونه من الثواب والاجر .

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي

ثلاث رسائل للجاحظ

نشر السيد يوشع فنكل في المكتبة السلفية بمصر ثلاث رسائل للجاحظ الاولى في الرد على النصارى والثانية في ذم اخلاق الكتاب والثالثة في القيان جعلتها ادارة مجلة الزهراء الغراء هدية لقرائها في سنتها الثانية . وقد وقعت كلها في (٧٧) صفحة . وقد قدم لها الناشر الفاضل مقدمة قال فيها ان الرسالة الاولى وجدها في مكتبة الازهر وفي خزانة كتب صديقنا احمد تيمور باشا اختارها عبيد الله بن حسان واما الرسالتان الثانية والثالثة فوجدهما في مكتبة نورالدين بك مصطفى من هواة الكتب في القاهرة . ثم ترجم العلامة الجاحظ ترجمة مختصرة نقلاً عن بعض الثقات الذين تعرضوا لذكره .

وقد نقل الناشر صورة كتاب للفتح بن خاقان كتبه الى الجاحظ وبه استدل على ان كتاب الرد على النصارى له وعلى منزلة الجاحظ من العلم قال : « ان اميرالمؤمنين يجد بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسه — لعلمك ومعرفتك — لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك ، فيما انت مشغول به ومتوفر عليه . ولقد كان القى اليّ من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك . فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنة على كتاب (الرد على النصارى) وافرغ منه وعجل به اليّ ، وكن من جذابه (؟) على نفسه ، وتنال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك .

وقد قرأت رسالتك في (بصيرة غنام) ولولا اني ازيد في مخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام » . وانت ترى ان ابن خاقان كان يمتنّ على الجاحظ باقصائه عن مجلس الخليفة لئلا يضيع عليه وقته بعشرة العظماء و ينصرف الى التأليف . والجاحظ في غنية عن مسامرة الخلفاء وتقلد وزاراتهم وأعمالهم . قال ميمون بن هارون قلت للجاحظ : الك بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن ابي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا تسميد .

وبعد فلا شك في ان هذه الرسائل الثلاث هي للجاحظ لانها نمطه الخاص في تأليفه وانشائه ، منسوجة على أسلوبه العجيب في رسائله وكتبه ، وكل ما خاض ابو عثمان عبابه من الموضوعات ، تظنك وانت تتلوه وتتدبره كأنه لم يتقن غيره حياته ، هكذا هو فيما طبع له حتى الآن من كتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والتاج وغيرها من رسائله الغريبة في وضعها وعموم نفعها ، والتي تفنى الليالي ولا تنفك مما يستفاد منه ، وكلما تدارسه المتدارسون استفادوا منه عقلاً جديداً ، وحكمة خالدة رائعة ، منذ عالج الجاحظ مئات من المباحث الدينية والمشاكل الاجتماعية والمسائل الأدبية ، فجلاها بتبيانه واي جلاء ، واردعها من واسع علمه وبعد نظره ما يستغرب و يستطرف على وجه الدهر ، ومن اقتصر على تلاوة ما كتب رحمه الله يجيء منه أديب وكاتب وعالم ، وعسى الايام ان تظفر الباحثين باكثر ما خطته انامله التي افضلت على العلم والعرب والاسلام ، وكل درة يعثر عليها من درره تعد في الذخائر الثمينة من ركاز الآداب الرفيعة والكنوز المدفونة .

والى القارئ جملة من رسالة القيان أوردها الجاحظ على لسان غيره في تاريخ الحجاب في الاسلام شأنه في بعض مواطنه اذا اراد إثبات قضية او التزهيد في امر ومن ذلك انه اعترف بانه كان يضع الكتاب فلا يؤبه له فيضع الآخر و ينسبه الى من تقدمه ومنهم سهل ابن هرون فيهش له الناس ويعجبون به ولعل قوله هذا في القيان من هذا القبيل قال :

الحجاب في الاسلام

لم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ، ولا لحظة الخلسة ، دون ان يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا في المناسمة والمشافهة ، و يسمي المولع بذلك من الرجال «الزير» المشتق من الزيارة ، وكل ذلك بأعين الأولياء ، وحضور الأزواج : لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المنكر ، حتى لقد حصل في صدر اخي بثينة من جميل ما حصل من استعظام المؤانسة ، وخروج العذر عن المخالطة ، وشكا ذلك الى زوجها وهزه ما حشمه ، فكمنا لجميل عند اتيانه بثينة ليقتلاه ، فلما دنا لحديثه وحديثها ، سمعاه يقول ممتحناً لها : هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ، و يطفئ نائرة الشوق ؟ قالت : لا . قال ولمَ ؟ قالت ان الحب اذا نكح فسد . فأخرج سيفاً قد كان اخفاه تحت ثوبه فقال : اما والله لو انعمت لي لملأته منك . فلما سمعا ذلك وثقا بغيبه ، وركنا الى عفافه ، وانصرفا عن قتله ، وأباحاه النظر والمحادثة .

فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام ، حتى ضُرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وتلك المحادثة كانت سبب الوصلة بين جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثّير وعزة ، وقيس وليلى ، واسماء ومرقش ، وعبد الله بن عجلان وهند . ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الاسلام ... ثم ان النساء الى اليوم من بنات الخلفاء وامهاتهم فمن دونهن يطفن بالبيت مكشفات الوجوه ونحو ذلك لا يكمل حج الا به ...

... وهذا الحديث وما قبله يبطلان ما روت الحشوية من ان النظر الاول حلال والثاني حرام ، لانه لا يكون محادثة الا ومعها ما لا يحصى عدده من النظر ، الا ان يكون عنى بالنظرة المحرمة ، النظر الى الشعر والمجاسد وما تخفيه الجلابيب ، مما يحل للزوج والوليّ ويحرم على غيرهما ... ثم لم يزل للملوك والاشراف اماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ، ونساء يجلسن للناس ، مثل خالصة جارية الخيزران ،

وعتبة جارية ريطة ابنة ابي العباس ، وسكر وتركية جاريتي ام جعفر ، ودقاق جارية العباسة ، وظلوم وقسطنطينية جاريتي ام حبيب ، وامرأة هارون بن معبوبة ، وحمدونة أمة نصر بن السندي بن شاهك . ثم كن يبرزن للناس احسن ما كن ، وأشبه ما يتزين به ، فما انكر ذلك منكر ، ولا عابه عائب .

... والدليل على ان النظر الى النساء كلهن ليس بحرام ، ان المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك ، فلو كان حراماً وهي شابة لم يحل اذا غنت ، ولكنه امر أفرط فيه المتعمدون حد الغيرة الى سوء الخلق ، وضيق العطن ، فصار عندهم كالحق الواجب . وكذلك كانوا لا يرون بأساً ان تنتقل المرأة الى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك الا الموت مادام الرجال يريدونها ، وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ، ويعافون المرأة الحرة اذا فارقت زوجاً واحداً ، ويلزمون من خطبها العار ، ويلحقون به اللوم ، ويعيرونها بذلك . ويحظون الأمة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالي . فمن حسن هذا في الاماء وقبحه في الحرائر ؟ ولمَ لم يغاروا في الاماء وهن أمهات الاولاد وحظايا الملوك وغاروا على الحرائر ؟ الا ترى ان الغيرة اذا جاوزت ما حرم الله فهو باطل ، وانها بالنساء لضعفهن أولع حتى يغرن على الظن والحلم في النوم ، وتغار المرأة على ابيها وتعادي امرأته وسريته .

... ثم هذا ايضاً وزن الابنية ، وأصناف الفرش والوشي واللباس ، ووزن القنوات التي تجري فيها المياه ، وانما نعني بالوزن الاستواء في الخرط والتركيب . فلا بد لما (١) لا يمنع الناظر من النظر الى الزرع والفرش والبنفسج في خضرته والاستنشاق من روائحه ، ويسمى ذلك كله حلالاً ما لم يمد (٢) له يداً ، فاذا مد يداً الى مثقال حبة من خردل بغير حقها فعل ما لا يحل ، واكل ما يحرم عليه ، وكذلك مكالمة القيان ومفاكهتهن ، ومغازلتهن ، ومصافحتهن للسلام ، ووضع اليد عليهن للتقليب ، والنظر حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم . وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللمم فقال : « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ، ان ربك واسع المغفرة » .... م . ك

---

(١) كذا الأصل . (٢) في الأصل « كله له حل ما يمد » .

اعلام النبلاء
« بتاريخ حلب الشهباء »

تأليف الشيخ راغب الطباخ ، الجزء الخامس ص ٥٧٥ والجزء السادس ص ٥٥٢ طبعا في المطبعة العلمية في حلب ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ — ١٩٢٦ م

هذان الجزآن خصها رصيفنا المؤلف الأديب بتراجم مشاهير حلب منذ سنة ٧٤٩ هـ الى سنة ١١٧٣ ، وفي الجزء الخامس ١٠٨ تراجم تتمة القرن الثامن و١٩٧ ترجمة من اهل القرن التاسع و١٨٩ من القرن العاشر اي انه حوى ترجمة ٤٩٤ ، وحوى الجزء السادس ٢٣٧ ترجمة منها ٩٠ من اهل القرن العاشر و٧٥ من القرن الحادي عشر و٧٢ من الثاني عشر وفيهما كالجزء الرابع تراجم كثير من مشاهير من انبتتهم الشهباء على الطريقة التي اختارها المؤلف من نقل كل ما عثر عليه واختيار المطول من التراجم. وامتاز الجزآن بان فيهما تراجم كثير من المحدثات والاديبات ولكن تراجمهن مختصرة لان المصادر التي اخذ عنها لم تطل في الترجمة لهن ، وجارى بعض من ألفوا كتب التراجم في القرون الوسطى فترجم للمجاذيب والممرورين من المهوسين وأغفل ترجمة القاشين والمعمارين والمغنين على نحو ما فعل النجم الغزي في الكواكب السائرة فانتقد رضي الدين الحلبي في تاريخه « در الحبب في تاريخ حلب » لعنايته بتراجم النقاش والتاجر والمغني والمطنبر والعاشق والمعمار وغيرهم ممن عدهم في العوام وجوّز لنفسه ترجمة المجاذيب ومن كان على شاكلتهم . فكنا نأمل من المؤلف المعاصر ان ينقل على الأقل تراجم تلك الطبقة التي ترجم لها رضي الدين وعابه بها نجم الدين فان ترجمة الشيخ ابي بكر بن ابي الوفا المجذوب التي أطال فيها جداً لا تهم المجتمع اليوم بقدر ما يهمهم التطويل في تراجم بني العديم وبني الشحنة وبني الكواكبي وبني الكوراني من الأُسر العريقة في العلم والمجد في الشهباء ممن أخرجوا للامة العربية عدة بطون اشتهرت بالفضائل والآداب والاسلام افتخر بمثل هؤلاء العظماء لا بالمجاذيب وكرامات المغفلين والمخرفين . وحبذا لو صحت عزيمة بعض القابضين على أزمة الاقلام في حلب على ترجمة مشاهير بلدهم باسلوب جديد على النحو الذي جرى عليه نابغة مصر الدكتور طه حسين في كتابه « ذكرى ابي العلاء »